

GERMANUS

(BAYNA FIKRAYN)

G45xB3

Germanus, Gyula

(Bayna fikrayn)

[illegible]

Princeton University Library



32101 062241730

المُتَشَرِّفُ المَجَرِّي
عبد الكريم جرمانوس

Germanos

بين فكرين ..

الأثر الشعبي المبدع في السنج الفكري

أعدده وأشرف على طبعه

صلاح دهن

١٠٠٢٢
Germanus, Gyula, 1885

المُتَشَرِّفُ المَجَرِّي
عبد الكريم جرمانوس

بين فكرين .. سبيح

الأثر الشعبي المبدع في النتاج الفكري

أعدده وأشرف على طبعه

صلاح دهن

(RECAP)

PJ 7538

.G45x B3

مکتبہ اسلامیہ

بہارِ علم و ادب

بہارِ علم و ادب



الاستاذ جرمانوس في مكتبه

بين يدي الكتاب

لم أكن أعرف المستشرق المجري الكبير عبد الكريم جرماتوس قبل السنة الفائتة . كنت قد قرأت عنه نتفاً صغيرة في بعض الصحف الشامية ، دون أن أقرأ له بالذات . ثم كان ان تداعينا ، بعض الاصدقاء وأنا ، الى استقباله في مطار دمشق في العام الفائت ، فوجدنا أنفسنا على حين غرة أمام انسان كبير قد تجاوز السبعين يفرض الاحترام من النظرة الأولى .

ولم يكن قد مضى على وصوله دقائق معدودات عندما بدأ يحدثنا ، إذ خلونا به ، عن أولى ذكرياته عن دمشق . وأثار استغرابنا عندما اخبرنا أن تلك الذكريات ترتقي إلى أوائل هذا القرن ! وحدثنا عن الأدب العربي واللغة العربية حديث الحب المتعمق ، وكان في صوته لكنة أجنبية أخذ يعتذر عنها ببعيد الشقة وطول مفارقة أرض العروبة . وهن مشاعرنا عندما قال لنا إنه كثيراً ما ينفرد بنفسه في مكتبه

بيودابست ويروح يطلق لسانه بالعربية لئلا يذسى ويشغل نطقه
للضاد والحاء والعين والكلام عامة .

هكذا تعرفت إلى العالم العلامة أول ما تعرفت . ثم إني
رحت أتبّع تاريخ حياته وأعماله في خدمة اللغات الشرقية
عامة والعربية خاصة . فعرفت أشياء كثيرة زادني تقديرًا
للرجل وإعجاباً به .

فهو قد ولد في عام ١٨٨٤ في بودابست ، أجمل مدن
أوربا ، وملتقى أغنيائها قبل الحرب الأخيرة ، وقد تعلق ،
وهو طالب في الجامعة ما يزال ، بلغات الشرق الأدنى وتاريخه .
وتابع دراسته بعد عام ١٩٠٥ في جامعي استنبول ثم فيينا .
وأمضى بعدها فترة مديدة في لندن حيث عكف على دراسة
النصوص التركية القديمة في المتحف البريطاني . وعاد
عام ١٩١٢ استاذاً للدراسات الشرقية في أكاديمية بودابست
حيث علم تاريخ الفكر الاسلامي واللغتين العربية والتركية .
ثم إن شاعر الهند الأكبر ، رابندرانات طاغور ،
دعاه إلى الهند ، حيث درّس من عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٢ في
جامعات دلهي ولاهور وحيدرآباد . وهناك نُشر كتاباه
« الحركات الحديثة في الاسلام » و « الأدب التركي الجديد »
والعديد من آثاره العلمية . وجاء من بعد إلى القاهرة حيث
أنهى دراسته في الجامعة الأزهرية ثم قصد مكة حاجاً ، وكتب
عن حجته كتاباً اسماء : « الله أكبر » نشر في عدة لغات .

وقد أجرى تحريات علمية واسعة بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤١ في القاهرة والمملكة العربية السعودية ، نشرت نتائجها في مجلدين : « شواخ الأدب العربي » و « دراسات في التراكيب اللغوية العربية » . وفي ربيع ١٩٤١ عاد يقضي بضعة اشهر في القاهرة والاسكندرية وسافر من بعدها الى دمشق .

تلك لحظة عن حياة عالمنا الكبير ، وهي قد تكون سريعة موجزة ، ولكن حياته كما نلاحظ من خلالها ، حافلة بقيم الاعمال وجيل الآثار .

فاذا أتينا إلى ما بين دفتي هذا الكتاب من دراسات ، سبق ان حاضر بها في مصر والشام ، لاحظنا أنها تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالفكر العربي ، وآخر بالفكر المجري . وان أعرض هنا للقسمين أو لبعضها بالكلام ، ولكني ساكتفي بأن ألفت النظر إلى صدق الاساس الذي أقيمت عليه هذه الدراسات . فهي تصدر عن الفكرة القائلة : إن التطور في كل لغة وكل أدب وكل حياة اجتماعية إنما ينبع من أوسع فئات الناس الذين يتكلمون تلك اللغة ويولد بينهم ذاك الأدب ويعيشون تلك الحياة ؛ فلا المجامع اللغوية ولا الهيئات الادبية ولا الزعماء السياسيون هم الذين يفرضون أنواعاً من التطور في هذا الاتجاه أو ذاك ، بل إن الشعب هو مصدر كل تطور خلاق يكتب له البقاء والنمو .

وانما كان عنوان الكتاب « بين فكرين » لما بين اليقظة

التي رافقت نمو الادب العربي الحديث وصعود الفكر المجري
من تقارب وتشابه ، ولما يمكن لأحد الفكرين ان يفيد من
تجارب الآخر ، إن في الميدان اللغوي البحت أو في ضروب
الانتاج الأدبي ، وهذا مالا يفتأ الاستاذ المستشرق الكبير
يذكر به قراءه في كل مناسبة .

دمشق : حزيران ١٩٥٦

صلاح دهني

في الفكر العربي

انني لاقف بين يدي الادب العربي في احترام كبير وسرور عظيم ، وشعوري بالاحترام يرجع الى ما أكنه من حب خالص نحو المسلمين احوائي ولغتهم المجيدة . اما سروري ، ففي غير حاجة الى شرح وايضاح : ذلك أني المجري الوحيد الذي اتاحت له فرصة التحدث باللغة العربية الى جمهور من القراء العرب ، بل انني المجري الوحيد الذي أدى فريضة الحج الى بيت الله الحرام .

فخلافاً لبعض الادم الاوربية الاخرى ، لانهدف نحن معشر المجريين ، الى استعمار الشعوب الاخرى ، ونزعتنا الى السلام تجعلنا نتجه بانظارنا الى الشرق ، باعين ملؤها الحنين ، شأننا في ذلك شأن أسلافنا الاقدمين ، الذين زاروا الشرق في العصور الخالية ، فجميع المجريين ، صغاراً وكباراً ، مازالوا تواقين لرؤية الشرق الجميل ، ذي الجو الشاعري المليء بالاسرار والغموض . فالدراسات الشرقية المجرية مستمدة من هذا الحنين ؛ وأكثر المستشرقين المجريين تبجحوا في اللغتين التركية والتترية ، عسى أن يكتشفوا وجوه الشبه بين

لهجات هاتين اللغتين ، واللهجات المحرية . وقد أدت هذه الدراسات الى نتائج جلية الأثر . مثال ذلك ان « كروثي جوما » صنف أول معجم للغة « تيب » منذ قرن ، وما زال هذا المعجم محتفظاً بقيمته وطرافته . وألفت مؤلفات « أرمين فامبيري » ضوءاً ساطعاً على لغات آسيا الوسطى القديمة المجهولة . وجمع « إيجناس كونوش » الادب الشعبي التركي ، فاتخذ بحثه أساساً للغة التركية الجديدة . ويعتبر المستشرق المجري « إيجناس جولدزيهر » من أئمة الدراسات العربية والاسلامية ، فما زالت مؤلفاته عن الحديث واصل الدين مرجعاً لاغنى عنه لكل طالب علم .

لقد كنت أحد التلاميذ المتواضعين للاستاذين الكبيرين فامبيري ، وجولدزيهر ، فورثت عنهما تعلقها بالشرق الاسلامي . ولم يُقصر اهتمامي على كشف النقاب عن التراث المجري العريق ، بل أردت أن أتعلم في التنقيب ، حتى أصل الى روح الشعوب الاسلامية وقلبها النابض . ولما كانت روح الشعوب الاسلامية وقلبها مرتبطين إرتباطاً وثيقاً بالدين الاسلامي - باعتباره آخر الاديان المنزلة الى بني الانسان - فقد اعتنقت الاسلام علناً في مسجد دلهي الاكبر بالهند ، كما أدت فريضة الحج في مكة المكرمة ، وزرت قبر الرسول في المدينة المنورة . وكنت دائماً موضع حفاوة وتكريم من قبل اخواني المسلمين ، فبادلتهم حباً بحب . والى جانب روح الشعوب الاسلامية وقلبها ، حفز العقل الاسلامي المؤمنين برسالة الاسلام على انتاج روائع عظيمة الشأن في الأدب والحضارة والثقافة ، ستظل على مر

الاجيال موضع فخار للجنس البشري بأسره .

قال « رانكه » المؤرخ الالماني : « ان الثقافة الانسانية مستندة

الى لغتين اتباعيتين (كلاسيكيتين) : اللاتينية والعربية . وبينما
اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد نفشت اللغة العربية في الشرق
روحاً فتية ، ولا يمكن فهم المصنفات الادبية الفارسية أو التركية ،
بدون الرجوع الى الكلمات العربية ، وخاصة ان وحي القرآن الكريم
الذي لا يجارى ، يعد بلا مرء اساس العقيدة الانسانية والثقافة
البشرية . »

لأستطيع الاسهاب في الاشارة بالروائع الادبية التي انتجتها
اللغة العربية هذه الروائع الممتدة من امرئ القيس الى ابن خلدون .
فهي معروفة لكم جميعاً . ولست أزمع عرض أفكار الشعراء والكتاب
والعلماء والفلاسفة الاقدمين . فالذي أرمي اليه هو مجرد ابداء وجهة
نظر عالم مجري ، من غير الناطقين بالضاد ، ومن تعلموا العربية في
الكتب . وموقفي شبيه بموقف رجل ينظر الى صرح شامخ من جانب
خاص ، لم تتح رؤيته لأي انسان ، أي أنه ينظر نظرة الاجنبي الصديق
العطوف . فنحن معشر المقيمين خارج العالم العربي ، قد نخطئ
التقدير لما يحدث داخله ، بيد أن هذا التقدير - وان كان مخطئاً -
ربما ساعد في إلقاء بعض الضوء على امور لم يتجه لها اهتمام من
يعيشون في بيئتهم المعتادة . لذلك ، أرجو أن تحمل ملاحظاتي
على هذا المحمل .

وأهم المميزات التي تلفت النظر في اللغة العربية هي ازدواجها .

فالمعروف ان اللغات الثقافية تمتاز بالتباين بين التعبيرات الادبية
وتعبيرات المحادثة . بل هناك طبقات مختلفة في لغة الادب نفسها ،
من حيث التعبير . مثال ذلك ان عامة الشعب من المتكلمين بلغتهم
الاصلية ، لا يفهمون جلياً لغة المؤلفات العلمية او الطبية او الفلسفية
ويستخدم الادب المنظوم كلمات تعبر عن مشاعر دقيقة ، قلماً نعث
عليها في الادب المنشور . والادب المنظوم يستمد مفرداته من اعماق
نفس الشاعر ، ومن خياله الخصب . ولما كانت القصيدة هي طريقة
التعبير عن الحقائق الازلية والمشاعر الخالدة ، فقد ابتكرت لنفسها
اسلوباً خاصاً ، تحررت فيه من القيود التي لا يستطيع الادب المنشور
أن يحميد عنها قيد أمثلة .

والى جانب هذه المميزات العامة ، نرى في بعض اللغات ظواهر
ناشئة عن تطورها الخاص . فقد كان للاسلام قوة تحويل جارفة ،
أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً . وكان لاسلوب القرآن
الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب ، فاقبست منه مئات بل
آلاف من الكلمات العربية ، ازدانت بها لغاتها الاصلية ، فازدادت
روعة وبهاء . والمؤلفات الادبية ، باللغة الفارسية التي كتبت غداة
اعتناق الفرس للاسلام ، كملحمة الشاهنامه وقصائد الرودغي لا تحوي
الا النزر اليسير من الكلمات العربية ، وجلها يتعلق بالمعارف الدينية
ولكن ، مع مضي الزمن ، أخذت الاصول العربية تنتقل الى اللغة
الفارسية الادبية ، وبنسبة أقل الى اللغة الدارجة . وفي أثناء العصور
الماضية ، أصبح عدد الكلمات العربية في المؤلفات الادبية الفارسية

يربو على تلك المشتقة من اصول فارسية . بل اصبح يجوز استعمال أية كلمة عربية في الادب الفارسي . لكن عامة الشعب من الاميين لم يكونوا يفقهون كلمة واحدة من هذه اللغة .

وما قيل عن اللغة الفارسية ، ينطبق على اللغة التركية مع فارق واحد ، هو ان اللغة التركية لم تقتصر على الاقتباس من العربية فحسب ، بل ومن الفارسية ايضاً . فالادب التركي المنظوم استمد تعبيراته من الفارسية أكثر من العربية ، بينما لجأ الادب المنثور الى الكلمات المشتقة من اصول عربية أكثر من الفارسية ، ذلك لأن الشعراء الاتراك تعلموا غالباً على اساتذة من الفرس ، لا على العرب مباشرة . وكانت لغة الكلام تختلف اختلافاً تاماً بين الطبقة المثقفة وعامة الشعوب من الاميين . بيد ان هنالك امراً جديراً بالملاحظة ، وهو ان الاختلاف بين اللهجتين كان مقتصرأ على الالفاظ المستعملة ولم يمس القواعد النحوية . فقد ظلت قواعد اللغة الفارسية الحديثة بلا تغيير او تبديل خلال اجيال عديدة ، شأنها في ذلك شأن قواعد اللغة التركية .

فالفرس والاتراك المثقفون الذين كانوا يتكلمون ويكتبون اللغة الفصحى لم يحدوا قيد انملة عن ادق قواعد لغتهم الاصلية فقواعد اللغة الفارسية الحديثة سهلة ، ولا تشمل عدداً كبيراً من صيغ الافعال . اما قواعد اللغة التركية ، فهي تشمل زمنين للحال ، وأربعة أزمنة للماضي الغير التام ، وزمنين للماضي التام ، وزمنين للماضي البعيد (أي السابق لزمن ماض آخر) ، وزمنين للمستقبل ،

أي اثني عشر زمناً مستقلاً يُحوّل كل منها الى صيغ النفي والاستحالة والاحتمال ، أي حوالي خمسين شكلاً في الصيغة الاخبارية وحدها ، هذا الى جانب الصيغ الاخرى ، مما يصل بعدد الاشكال الى الثمانين او أكثر . وجميع الاميين من الاتراك يستعملون هذه الاشكال في لغة الكلام ، دون أن يدرسوا قواعدھا ؛ لكنهم يدركون بغريزتهم الفوارق المميزة بين الاشكال المختلفة . وُجمل القول ان التركي المثقف والتركي العامي - الذي يتكلم باللغة التي كانت تُسمى فيما مضى : « قبا تركجة » - كانا يحترمان جميع قواعد اللغة احتراماً عظيماً . ولنتجه الآن بنظرة عابرة الى اللغات الآرية . فهي منحدرة اصلاً من اللغة الهندية السانسكريتية ، ولذلك تسمى أحياناً اللغة الهندية الآرية . ولهذه العائلة مميزة خاصة جديرة بالملاحظة ، ألا وهي فقرها بالافعال . وقد يبدو هذا الرأي لأول وهلة غير منطقي ، فيتساءل البعض : كيف تستطيع تلك اللغات الآرية ان تعبر عن جميع أساليب الافعال ؟ انهم يستطيعون ذلك ، ولكن باستعمال حروف مستقلة ، لكل منها صوت وتكوين مختلف ، تربط بعضها ببعض بواسطة مقاطع شتى ، تكتب امام اصل الفعل .

وقد امتازت اللغتان اليونانية واللاتينية القديمتان بعين لا ينضب من الكلمات ، اشتقت منها جميع المصطلحات العلمية في الحياة الحديثة . بل ان اللغة العربية نفسها لجأت إليهما ، وهو أمر لاأظنه ضرورياً . فكلمات : دبلوماسية وديموقراطية وارشتراطية وسينما الخ ..، يمكن التعبير عنها بكلمات عربية : كسياسي وشعبي وعظامي

و صور متحركة الخ ..

ولنورد الآن مثلاً . فكلمة نفخ باللاتينية « spirare » قد اضيف أمامها مقطع « con » فأصبحت « conspirary » ومعناها « مؤامرة » . وإذا اضيف أمامها مقطع « in » أصبحت « inspiration » ومعناها « إلهام » . وإذا اضيف أمامها مقطع « ad » أصبحت « aspiration » . ومعناها « طمح » . هكذا يمكن استنباط كلمات كثيرة منطقياً من كلمة واحدة ، كالاشتقاق في اللغات السامية ، ولكن بطريقة مخالفة تماماً .

ونلاحظ نفس هذا الفقر في اللغة الألمانية ، حيث يضطر الى اضافة مقاطع مساعدة لاييجاد معان جديدة ، والخلاف بين اللغات المنحدرة من اصل واحد يرجع الى تغير البيئة . فهو اذاً عامل مضاف الى عوامل طبيعية (فيزيولوجية) . إذ كثيراً ما ينطق الاحفاد بعض الاصوات بطريقة مخالفة لما فعل اجدادهم . وقد يتغير النطق الى مدى أبعد ، اذا وجد عامل حيوي (بيولوجي) مؤثر في العامل الطبيعي ، كاختلاط العناصر والشعوب بعضها ببعض .

وإذا حللنا اسباب اختلاف اللغات ، لوصلنا الى نتائج طريفة . فاللغات الهندية الآرية ، ذات الفروع المتشعبة ، تختلف بعضها عن بعض ، الى حد يجعلها تبدو لأول وهلة غريبة بعضها عن بعض . فاللغة اليونانية ، على كراهيتها للحروف الساكنة المركبة ، واللغات الصقلية ، ذات الحروف الساكنة المزدوجة والمثلثة ، منحدرة من نفس الاصول الآرية . واللغة الايطالية ذات النغمات الموسيقية ،

واللغة الالبانية المحشوة ، ابنتا عمومة . ومن اليسير علينا كشف هذه العلاقة في كلمتي « Inpret » الالبانية و « Imperator » اللاتينية .

فما هو السبب الذي جعل تلك اللغات تسير في هذه الطرق المتباينة ؟ ان العلم الحديث يحاول دائماً كشف الاسباب المادية ايضاً ، فاذا عرفنا الظروف المادية التي كانت تعيش فيها الشعوب القديمة ، لاستطعنا تفسير هذه الظاهرة . فالاكتشافات الفنية ساعدت الانسانية ، فانقذتها من المضار الناشئة عن الطبيعة . لقد كانت الجماعات البدائية اكثر تعرضاً لقوى الطبيعة ، مما نحن عليه الآن ، حيث نتمتع بالتدفئة المكيفة وبالمذياع . واللغات التي انفصلت عن اصلها المشترك في العصور القديمة ، ما لبثت ان منيت بتغيرات اساسية ، نشأت عنها لهجات متباينة . لقد اصدر دانيال وبستر ، في معجمه العظيم منذ مائة سنة ، حكمه على اللغة الانجليزية . فتنبأ ان اللغة الانجليزية في امريكا ستنفصل عن امها — اي اللغة الانجليزية — الى حد ان الانجليز والامريكيين سيكتبون ويتكلمون لغتين مختلفتين ، فلا يستطيعون التفاهم . بيد ان هذا التنبؤ كان مخطئاً . ففي خلال ذلك ، اخترع البخار والكهرباء والراديو ، وتقدمت الصحافة فربطت بميثاق من حديد ضفتي المحيط الاطلسي ، وما زال الشعبان متفاهمين كسابق عهدهما . نعم ان بينهما بعض الفوارق في النطق والاسلوب ، لكنها النتيجة الطبيعية للتطور التاريخي . ولولا النتائج الباهرة التي ادت اليها المخترعات الفنية ، لانفصلت امريكا عن انجلترا بمعدل الف

سنة على الاقل ، ولتحولت بنوء وبستر الى حقيقة واقعة . عندئذ كان المغويون وحدهم سيستطيعون اقامة الدليل على ان اللهجتين كانتا متحدتين يوماً ما .

عندما اضطرت الشعوب الى الهجرة بسبب التغيرات الجغرافية التي حدثت على وجه البسيطة ، تفرق شملها ، وتطورت لغاتها في اتجاهات مختلفة . وهذه التغيرات هي التي انتقد منها النبي نوح عليه السلام الانسانية ، كما انتقد منها الحيوانات ، سواء أكانت نافعة ام ضارة . وهناك مثلاً قطع سد مأرب . والى جانب هذه الكوارث ، وقعت حوادث اخرى ، كان لها آثار مادية ، اتجهت بالانسانية اتجاهها مخالفاً للاول .

فالشعوب القديمة التي كانت تتكلم اللغات السامية كالبابليين ، هاجرت من موطنها الاصلي في الجزيرة العربية ، واستقرت في سهول بين النهرين الخصيبة ، اي في العراق . فهذه المنطقة الخصبة ، الكائنة بين نهريين ، قد تجردت من الصخور والغابات ، لذلك ، ابتكر مستوطنوها مواد بناء تحمل محل الاحجار والاشخاب ، وهي الآجر المحروق بوساطة حرارة الشمس . فقطعة الصلصال المربعة الزوايا هذه ، هي التي ادت الى ازدهار حضارة ، حذت حذوها الشعوب المجاورة ، وما زالت آثارها باقية حتى الآن . واخترع البابليون الساعة المائية ، وكان نظامهم الرياضي مؤسساً على رقم «٦» وقد جاء في «العهد القديم» ان الله خلق العالم في ستة ايام ، إذ ان العبريين تعلموا الرياضيات من البابليين . وقسم اليوم الى اربعة امثال

رقم « ٦ » و « الدسته » ضعف الستة ، والساعة مقسمة الى ستين دقيقة ، والدائرة ذات ٣٦٠ درجة هي ستة امثال رقم « ٦٠ » .
ليس عسيراً بناء منزل من جذوع الاشجار ، أو تركيب
كوخ من الاحجار الفخمة الغير المهذبة . لكن تشييد منزل من
آلاف قوالب الآجر الصغيرة الحجم يتطلب خطة مرسومة . ورسم
هذه الخطة يفترض الامام بعلم الهندسة وبقوانين الالتحام والجاذبية .
فطبيعة مواد البناء أدت بالبابليين الى استنباط هذه القوانين .
وفيضانات الانهر الموسمية ، المطابقة من حيث الزمان لبعض الابراج
السماوية ، حملت البابليين على دراسة الفلك ، والعلوم المتصلة به ،
فتوسعت ثقافتهم في الرياضيات .

وقد أدت طبيعة مواد البناء ايضاً ، إلى نتائج اجتماعية بعيدة
المدى . فالشعوب التي تشيد منازلها البدائية بقطع الخشب الضخمة ،
أو التي تلجأ إلى الكهوف الصخرية ، يسهل عليها هجر موطنها اذا
هاجمها الاعداء . فحياتها في الغابات تجعل مواد البناء ، في متناول
يدها ، فما عليها الا ان تنسحب صوب مناطق اخري ، حيث
تستأنف بناء اكواخها . وأمثال هذه الشعوب لا تتعلق بمنزلها
تعلقاً وثيقاً ، وهي ترحل بسهولة وتتشتت في مناطق شاسعة .

ليست هذه حال البابليين ، بناء المنازل بالآجر . فهم يعنون
عناية فائقة بتشيد مساكنهم ، متكبدن المشاق والمتاعب في سبيل
ذلك ، فاذا هاجمهم الاعداء ، دافعوا عن دورهم ، بكل ما اوتوا من
شجاعة واستماتة ، والدفاع يتطلب نظاماً اجتماعياً ، حيث يتولى

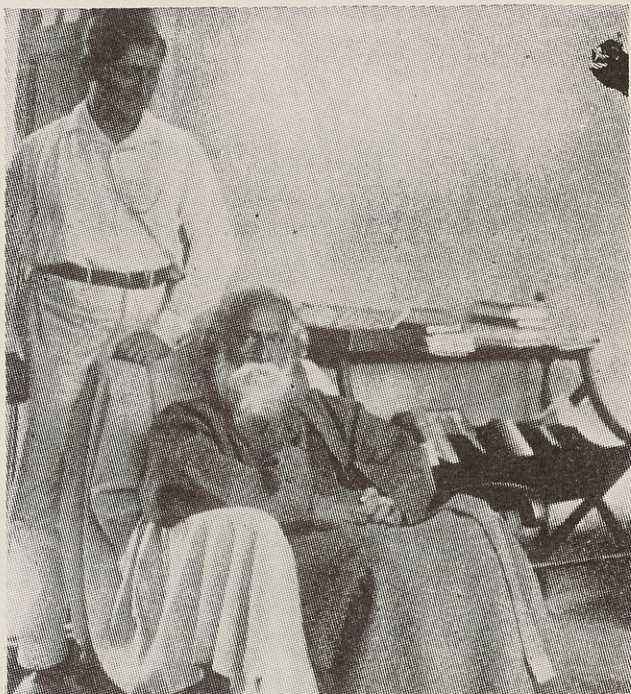
البعض الامر ويخضع البعض لذوي الساطات . هكذا تركزت سلطة الدولة . اما الشعوب الرحل التي تغير موطنها بسهولة ، فانها لم تكون دولة ذات حكرمة مركزية ، ونذكر منها على سبيل المثال هنود امريكا الحمر . ومن الوجهة التاريخية ، كان البابليون والاشوريون ، وما زالوا ، نموذجاً لنظام الحكم المطلق « الدكتاتوري » .

لقد هاجر الآريون الى مناطق واسعة ، فانتشروا من آسيا الوسطى عبر الهند ، ثم امتدوا إلى شواطئ المحيط الاطلسي . وانحدرت من اصول اللغة الآرية ، عدة لهجات شقيقة لا يستطيع التمييز بينها الا اللغويون . اما اللغات السامية كالبابلية والاشورية والآرامية والكلدانية والعربية ، فقد ظلت اكثر تجانساً واكثر تشابهاً بعضها ببعض ، نظراً لضيق توسعها الجغرافي . لقد احتفظت اللغات السامية الى يومنا هذا بتركيبها الثلاثي . كما احتفظت بصيغ اشتقاقها الجبرية ، فاصبحت اكثر اللغات محافظة ، بالنسبة إلى سائر عائلات اللغات . فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التي كان يتحدث بها اجداده منذ ألف سنة . اما اللغة العربية ، فقد هزمت العواصف التي لاقتها خلال ألف وخمسةائة سنة ، وظلت قائمة امامنا كالصرح الشامخ ، غنيةً بأدائها الرفيعة وفي مقدمتها لغة القرآن الكريم .

كان العرب في الجاهلية متفرقين في قبائل تفخر كل منها بعراقها ، وتتحدث كل منها بلهجتها الخاصة . لكن لغة القرآن

الكريم والنظام السياسي الديني الاسلامي قد ادججا العرب في امة واحدة ، تتكلم بلغة واحدة ، وكان التماسك الديني واللغوي الذي احده الاسلام قويا فعلا . ولقد حكم اليونان والفرس والرومان مصر ، دون أن تتغير ثقافياً . ولكن ما كاد العرب يظهرون في وادي النيل ، حتى تحول المصريون بقدرة قادر وبفعل الاسلام الى شعب متكلم باللغة العربية ، وحتى أصبحت مصر مركز الادب العربي ، وما زالت الى يومنا هذا أعظم بلاد في هذا المضمار .

لقد تبوأَت اللغة العربية مركز الصدارة ، من عُمان شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً . بل ان الامم الاجنبية ذات الماضي العريق ، قد اتخذت العربية لغة ، وانتجت روائع ادبية . وقد تعلم عامة الشعب اللغة العربية وتكلموا بها . لكنهم وقعوا تحت تأثير العوامل الطبيعية (الفيزيولوجية) الناشئة عن اصلهم الاجنبي . بل ان المراقبين من بني أُمِّيَّة قد أشاروا الى سير اللغة العربية الفصحى سيراً بطيئاً في طريق الفساد فحاولوا معالجة الامر ، بيد ان محاولاتهم ذهبت سدى . فمنذ اقدم العصور ، كانت العربية منقسمة الى لغتين : لغة المتحدث ولغة الكتابة . وقد تأثرت كل منهما بالآخرى فتقاربتا حيناً ، وتباعدتا حيناً ، وحاول النحاة في العصر العباسي انقاذ اللغة العربية ، وقد برز علماء فقه اللغة العرب زملاءهم العلماء الغربيين ذكاء وبراعة . فالمسلم به ان مفكري الاسلام كانوا أساتذة الاوربيين في القرون الوسطى ، في مبادئ العلوم والطب والفلسفة ، لكن إتساع أفق علماء اللغة العرب لم ينوه إليه كثيراً ، رغم أنهم اكتشفوا منذ ألف



الاستاذ جرمانوس مع شاعر الهند الاكبر طاغور

سنة قواعد كان يجهلها الغربيون .

لم يكن الاختلاف بين لغة التحدث ولغة الكتابة مقصوراً على المفردات . فالمعروف ان مفردات اللغة تزيد طبيعياً ، نتيجة لاتساع الثقافة وتقدم الحضارة . وقد أفاض في هذا الموضوع أكثر العلماء قديماً وحديثاً ، فأشاروا الى العناصر الفارسية وغيرها من العناصر الاجنبية ، الدخيلة على اللغة العربية ، كما اشاروا الى تقدم الاسلوب طبيعياً جنباً الى جنب مع تطور المجتمع الانساني . وكان لفلسفة أريستو اثرها الحتمي في الاسلوب العربي . وفي تجدد تكوين المجتمع ، نظراً لتغير البيئة ، وظهور المكتشفات الحديثة ، مما أدى الى ابتكار طرق جديدة ، فأصبح لزماً استنباط تعبيرات لغوية ملائمة . فشعراء الجاهلية كانوا لا يفهمون معنى عبارة « السكك الحديدية » ، شأنهم في ذلك شأن بدوي بن قطيبة الذي لم يفهم عبارة « أتهمز الفأرة ؟ » بدلاً من « هل تقبض على الفأرة ؟ » ، فأجاب : « الهرة تهمزها » . وكلمة « الكهرباء » التي كانت تستعمل في الماضي بمعنى « العنبر » أصبحت تشير الى معنى غير مفهوم لاجدادنا منذ قرن واحد .

بيد ان فضل العلماء العرب الاقدمين كان أعمق أثراً من هذه الملاحظات السطحية .

فالجاحظ (المتوفى في سنة ٨٦٨) كشف في كتابه « البيان والتبيين » الاسباب الطبيعية (الفيزيولوجية) للتغيرات السماعية في الاصوات . إذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفم والحنجرة

وضبطها . ونتيجة ذلك ان الكلمة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة ،
بحسب اختلاف الشعوب . كما لاحظ ان هنالك عيوباً طبيعية في
حواس الكلام ، من شأنها أن تؤثر في النطق ، وان اختلاف
الاحوال الجوية يؤدي الى اختلاف في الكلمات .

وقد أورد على سبيل المثال قصة فكاهية طريفة عن واصل بن
عطا مؤسس حركة المعتزلة . كان هذا العلامة الكبير ، لا يستطيع
نطق حرف الراء ، فكان يلفظها غيناً . لذلك عمد الى تجنب الكلمات
ذات الراء ، وابدأها بمترادفات خالية منها . كأن يقول « ملحداً »
بدلاً من « كافر » ، و « قمحاً » أو « حنطة » بدلاً من « بر » ونسب
تفخيم الحروف كالتفاف والصاد واللام والواو الى تشوه في الفم أو
الى افناء اللثة . والاجانب ينطقون الاصوات بلكنة يتوارثها
احفادهم ، عدا ما يضيفونه الى اللغة العربية من الكلمات الدخيلة .
فهذه الاستنتاجات تدل على قوة ملاحظة جديرة بالاعجاب . ولست
بحاجة الى الاشادة بمؤلفات الاصمعي وسيبويه ، والسجستاني ،
وأبي معبد والكسائي وغيرهم ، للتدليل على أن العلماء العرب قد
سبقوا علماء الغرب في هذا المضمار . بيد ان اللغة الدارجة كان لها
حياة مستقلة عن حياة اللغة الفصحى ، رغم انها عاشتماً معاً ، متوازيتين .
وعلى حد معرفتي ، أعتقد أن العربية والصينية هما المثالان الوحيدان
لحياة لغتين مميزتين جنباً الى جنب : احدهما على شفاه الشعب ،
والاخرى على صفحات الكتب . والتميز بينهما ليس مجرد اختلاف
في المفردات ، كما هو الامر في اللغتين الفارسية والتركية .

بل هنالك هوة سحيقة تفصل بينهما ، هوة ناشئة عن اختلاف في التكوين النحوي ، واختلاف في جوهرهما ولبهما . فاللغة الدارجة لهجة من لهجات اللغة الفصحى بل إن هنالك لهجات تسير في محاذة اللغة الفصحى والتميز بين هذه اللهجات ضئيل لا يكاد يذكر . ويعتبر اللغويون هذه اللهجات ضرباً من ضروب فساد اللغة الفصحى وانحطاطها . وذلك بحكم ان اللغة الفصحى هي وحدها التي كان يلقي بها شعراء الجاهلية قصائدهم في سوق عكاظ وغيرها ، وهي التي انتقلت الى بلاد الفرس والاندلس عن طريق القرآن الكريم الذي لا يجارى في القوة والاعجاز ، ومما لا ريب فيه أن فساد اللغة قد حدث ، على مرور الزمن ، من جراء العوامل السابق بيانها - أي التغيرات التاريخية ، والتأثيرات الجغرافية والطبيعية (الفيزيولوجية) فضلاً عن الأمية .

لكن هذه الاسباب وحدها لا تكفي لتبرير انحراف اللغة الدارجة عن اللغة الفصحى ، وفي رأيي ان هذه الظاهرة مرتبطة ارتباطاً ذاتياً بالطبعتين الثلاثية والجبرية لاسرة اللغات السامية . بل ان هاتين الطبعتين هما اللتان أدتتا الى هذا الانحراف ، وكان لهما اثر حاسم في ذلك . فالاشتقاق الجبري في اللغات السامية عامة وفي اللغة العربية خاصة قد ادى الى المحافظة على الثروة اللغوية وعلى مميزاتها القديمة ، فاتسع نطاقها اكثر من اللهجات الاخرى الشقيقة . فضلاً عن ان الاشتقاق الجبري فرض على اللغات السامية عامة واللغة العربية خاصة صلابة حالت دون تغييرها وفسادها . وكما ان ٢×٢ في

العلوم الرياضية تساوي ع ، كذلك الاشكال الصلبة للغة العربية لا تحتتمل اي تغيير جوهري ، دون أن يتطرق اليها الفساد . وفي رأيي ان هذه الطبيعة الذاتية التي طبعت عليها اللغة العربية ، جعلتها في مركز الانفراد والتباين ، وسط اللغات الاوربية . فالكتب والصحف في جميع انحاء العالم العربي ما زالت حتى يومنا هذا محافظة على قواعد النحو الصلبة ، التي اقرها القرآن الكريم منذ نحو الف واربعائة عام ، اما اللهجات الشعبية ، فقد بسطت قواعد النحو والتجويد ، وازادت تعبيرات اقليمية عذبة طريفة إلى مفرداتها . وبين الفينة والفينة ، اخذت اللغة الفصحى تقتبس دون ان تشعر ، عناصر من اللغة العامية ، فازدادت مفرداتها ، لكن الفارق الاساسي ظل قائماً بينها .

بيد ان هذه الظاهرة ليست ناشئة عن مشكلة اغوية ذات طابع علمي او نظري ؛ بل هي مشكلة متعلقة بمستقبل الثقافة العربية وربما كانت مشكلة ذات طابع سياسي . فاللغة العربية الفصحى تربط بين ابناء العروبة ، من مراکش غرباً الى جاوه شرقاً . وهي الرابطة القائمة بين جميع المسلمين المثقفين في انحاء العالم قاطبة . فاذا انفصلت هذه العروة ، فقد تنهار من جرائها الوحدة الثقافية ، بحكم استنادها الى دعامة اللغة .

وقد شوهدت مثل هذه الظاهرة في بعض اللغات الاوربية وبخاصة في اللغة الالمانية . كانت الشعوب الجرمانية مركبة من عدة قبائل : السيدايون والساكسونيون والسويسريون والبافارزيون

والبروسيون والوستفاليون الخ .. وكان كل شعب يتحدث بلهجته الخاصة . وكانت هذه اللهجات مختلفة بعضها عن بعض الى حد ان البروسي كان لا يستطيع التفاهم مع البافاري ، والوستفالي لا يستطيع التفاهم مع الساكسوني او السويسري . ونظراً الى ان اللغة الالمانية منحدرة من اسرة اللغات الآرية فانها لم تربط بالرباط الوثيق الجامد الذي ربطت به اللغة العربية ، بحكم تكوينها . فهذا الاعتبار — مضافا الى الاعتبارات السابقة — أحدث في هذه اللهجات تشعباً واسع المدى . والتميز الذي فصل لغويا بين هذه القبائل لم يلبث ان فصل بينها سياسياً ايضاً . أما فكرة الوحدة الالمانية ، فهي وليدة القرن التاسع عشر ، ولم تتحقق الا في القرن العشرين وبخطوات بطيئة . وعندما قام مارتين لوثر بترجمة التوراة الى اللغة الالمانية الرسمية ، ساعد على استقرار هذه اللغة ، إذ أصبحت أداة لنشر الآداب والعلوم ، وما لبثت ان انتشرت في كل مكان . وفي القرن السادس عشر ، كانت الظروف مواتية لاتحاد اللهجات . فحركة الاصلاح الديني التي اعلنت الحرب على البابوية ، اخذت تدعو للقضية الوطنية ، مناصرة اللغات القومية على اللغة اللاتينية ، لغة العصور الوسطى ولسان حال الكنيسة الكاثوليكية . ثم جاءت النهضة العلمية فاسدت يد المعونة الى هذه الحركة . لكن هنالك عاملاً قوياً كان له الفضل في كسب المعركة الحاسمة : الا وهو اختراع الطباعة وانتشارها . ففي سنة ١٥١٦ ظهر ٥٥ كتاباً مطبوعاً ، ثم ارتفع هذا العدد الى ٤٩٨ في سنة ١٥٢٣ .

وقد طبعت مؤلفات لوثر نفسه في ذلك الوقت ، والمعروف
عن الالمان انهم مولعون بالكتب ، تواقون الى بحث النظريات ،
ميالون للدرس والتمحيص . لذلك اخذت المدارس تنشأ ، حتى
بلغت المئات عدداً ، وعكف الشعب على الاطلاع ، متخذاً الالمان
نبراساً يهتدي به ، وترجمة التوراة مثلاً يحتذى ، ولم يمض زمن
طويل حتى اصبحت اللغة الالمانية اداة لنشر الثقافة والادب بين
جميع الالمان ، الذين لقنوها في المدارس وتعودوا تدريجياً على
استعمالها في المجتمعات وفي المحادثات اليومية .

وبدهي ان كل قبيلة من القبائل الجرمانية ما زالت تعرف
لهجتها الخاصة وتستعملها . ولكن كل الماني ملم بالقراءة والكتابة
يفهم فهماً تاماً لغته الفصحى . وهنا يجب ان اقول ان جميع الالمان
الذين نشأوا في البلاد يحسنون القراءة والكتابة . اما اختلاف
اللهجات ، فمن السهل ملاحظته في النطق ، إذ انه ظل اقليمياً . اما
اللغة الالمانية المتحدث بها والمكتوبة ، فهي واحدة . ويرجع
الفضل في ذلك الى ترجمة التوراة وإلى المدارس . فلولا المدارس ،
والكتب الرخيصة الثمن ، والروح التواقة للعلم ، لما وجدت الامة
الالمانية المتحدة .

للمسلمين كتابهم الكريم باللغة العربية ، هو القرآن ، تلك
المعجزة الرائعة التي لا يستطيع أي انسان مباراتها . وقد وضعت
قواعد النحو وحددت تحديداً ازلياً . فاذا استطاع المسلمون بناء
مدارس في جميع المدن والقرى ، وإذا عمموا اللغة الفصحى ،

لانبثقت عبقرية القرويين والعمال ، ولاتتجت بلا مرء روائع ادبية
جديرة بالاعجاب . لقد كانت الطباعة قوة فعالة في نشر التعليم ؛ اما
الآن فامامنا اداة اعظم شأنًا لتعليم الشعب لغة بلاده ، هي المذياع ،
فالمذياع عامل قوي من عوامل التقدم ومكافحة الامية والفقر ،
ونشر المعرفة ، والترفيه عن النفس ، عامل لم يسبق له مثيل في
الازمنة الماضية .

والروح الغريزية للشعوب الناطقة بالضاد ، ستحفزها على
انتهاز الفرصة للظهور في الميدان . فمنذ خمسين عاماً ، قلّمنا كنا نعثر
على قصة عربية حديثة ، وقلّمنا كنا نجد جمهوراً من القراء لمطالعتها .
ولا غرو ، فقد كان مجتمع الناطقين بالضاد معجباً بأئمة الادب القديم ،
ضارباً على مثالهم ، حتى في اسلوب الرسائل المتبادلة ، وإن مجرد
القاء نظرة على الرسائل المنشورة في الكتب المدرسية منذ نصف
قرن ، يجعلنا نتحقق من الفارق الكبير بين اسلوب المعاصرين ،
واسلوب اجدادهم . لقد سرّى المرحوم السيد مصطفى المنفلوطي عن
نفوسنا ، بقصصه ، التي نسجها على منوال القصص الفرنسية ،
فاخذنا نندب حظ ماجدواين العاشر . اما الآن فيوجد نثر ادبي
عربي اصيل غير مقلد ، وهو يعبر عن افكار المؤلفين تعبيراً ذاتياً .
فال موضوع الآن هو الذي يجب ان يجتذب اهتمام القارئ ، لا
الاسلوب البديع والجميل الطويلة المسجوعة ، التي يحاول بها الكاتب
اظهار براعته ، وقوة بيانه . بل يجب ان يتجه المؤلف الى كشف
ماخفي من آلام الشعب ، محاولاً تحسين حاله ، وتحقيق آماله .

إن كل إنتاج ادبي ، مطبوع بطابع عصره . فمنذ أجيال عديدة ، ظل الأدب العربي وقفاً على الطبقة الممتازة ، متخذة إياه مسلاة للترفيه عن النفس ، حيث كانت تقضي اوقات الفراغ في دراسة المقامات ودواوين الشعراء القدامى على ما فيها من تعقيد ، إلى غير ذلك من الشعراء الاتباعيين . لقد دالت دولة السادة والاشراف ، كما دالت دولة القطار القديم ؛ وبعد ان كان قافلة من الجمال ، اصبح عربات تجرها قاطرة . فالشعب الآن هو الكل في الكل . لقد اهمل امره طويلاً ، لكنه ظل في الماضي يكافح مكافحة الابطال للحصول على نصيبه من الثقافة والحضارة . لقد انتج الشعب العربي الروائع من الأدب الشعبي في قصص الف ليلة وليلة ، التي تعد آية في ثروة المادة وخصب الخيال ، مما جعلها جديرة بتبوأ المكانة الاولى بين مصنفات الأدب الشعبي . وهذا مثال لما يستطيع الأدب الشعبي العربي ان يدركه من التقدم في المستقبل .

جاء المذيع فكان القنطرة التي تصل بين الفصحى والعامية ، بعد انقطاعها الطويل ، فجميع المحطات تذيع مناهجها باللغة الفصحى ، وبأسلوب يستطيع فهمه كل عربي على شيء من الذكاء . لقد امتنع المذيع عن نشر النطق الخاطيء او الغلطات النحوية الشائعة لدى عامة الشعب . كما انه تجنب استعمال الجمل الطويلة ، والتعابير الطنانة الرنانة ، والغريب من الكلام ، الذي لا يفهمه الا المتحذلقون والمعلمون .

فاذا سألتني سائل محب للاطلاع : أية من اللغتين يجب المحافظة

عليها ونشرها ؟ لأجبتة بلا تردد انها الفصحى ، بشكلها المعتدل
المهذب ، الملائم للتعبير عن الحياة العصرية . وفي مفترق الطريقين ،
يجب ان نختار ذلك الذي يرفع الشعب من مدارج الجهل الى
مدراك العلم ، لا ذلك الذي يهبط بالمتعلمين الى مستوى الجهلة ،
فالسبيل الذي اتخذه الشعب الالماني منذ اربعة قرون ، خليق بان
يسلكه اليوم الناطقون بالضاد . اتني اقدر الصعاب التي يواجهها
التلميذ عندما يبدأ في تعلم الكتابة . فكأنه يلقن لغة اجنبية ، لا لغته
القومية . وأعرف أيضاً ان كثيرين يريدون التخفيف عن التلاميذ ،
بجعل لغة الكتابة مطابقة للغة الحديث المنزلي الدارج ، ولكن ماذا
يكون عندئذ مصير التراث الثقافي العربي العريق ، الذي يعد بحق
مفخرة من مفاخر الانسانية ، سيصبح وقفساً على المستشرقين ،
يتمتعون بدراسته ، بل سيصبح كتاباً مغلقاً يعجز عن قراءته
المتكلمون باللغة العربية .

وكما ان الطباعة ساعدت اللغات الأوربية على الاستقرار ،
كذلك وأكثر من ذلك فعل المذياع الآن . فالتعليم العام ، المدعم
بوسائل الترفيه عن الشعب ، سيؤدي خدمات جليلة ، في سبيل
تقدم الانسانية ، وسينقذها من طريق الانحطاط .

لقد وجد دعاة انتصار العامية حلفاء لهم في اشخاص بعض
المصلحين ، الذين يفكرون في ابدال الحروف العربية الاصلية
بالحروف اللاتينية . ويبدو ان هذه الحركة قد اكتسبت قوة الى
مدى ان مجمع اللغة العربية ، قد تناول المشكلة ، ونشر نتيجة لها

في كتاب عنوانه : تيسير الكتابة العربية .

لقد قبل الاتراك الحروف اللاتينية في سنة ١٩٢٨ واكره مصطفى كمال اتاتورك الصغار والكبار من افراد الشعب ، على ترك الحروف العربية والاستعاضة عنها باللاتينية . لكن اللغة التركية تتلاءم مع هذا التغيير . وسبق للمستشرقين الاوروبيين ان استخدموا الحروف اللاتينية في كتابة اللغة التركية قبل اصلاحات اتاتورك باكثر من قرن . ورغم هذا ، فما زالت هنالك صعوبات ، نظراً الى ان العناصر العربية في اللغة التركية الفصحى قد اعيت الذين حاولوا وضع حد موحد للتعبير عنها ، وما زالت حالة التردد قائمة في هذا الصدد وقد سار تغيير الكتابة جنباً الى جنب مع حركة حماسية صوب تطهير اللغة ، من آلاف الكلمات المنحدرة من اصول فارسية وعربية ، واشتقاق كلمات من عناصر تركية صحيحة ، هكذا ظهرت في الوجود لغة جديدة ، واصبح كل كاتب يكتب بذكر كلمات خاصة به ويشرحها في معجم صغير ملحق بقصته . وقد اقتحمت كلمات فرنسية عديدة اللغة التركية ، عن طريق الحروف الهجائية الاوربية ، وحلت محل الكلمات الفارسية والعربية المستأصلة .

وكان لهذا الحدث آثار بعيدة المدى ، اذ استهل عصر جديد في التاريخ التركي ، فالجيل المعاصر عاجز عن قراءة او تفهم الادب التركي القديم ، الذي يرجع عهده الى ٦٠٠ سنة . والحكومة تتولى طبع بعض المؤلفات القديمة ، بالحروف اللاتينية ، مشروحة ومغلقة عليها .



الاستاذ جرمانوس باقي احدى محاضراته في جمع من الادباء والعلماء في القاهرة

وقد دعا عبد العزيز فهمي الى استخدام الحروف اللاتينية في الكتابة العربية ، لكن اقتراحه كان عقيماً . فرغم كل محاولاته ، لم يوفق الى ايجاد اصوات لاتينية ملائمة لاكثر من ٤٠٪ من الاصوات العربية ، لذلك اضطر الى ادماج الاشكال العربية الاصلية مقلوبة : مثلاً حروف ج و ح و خ و ص و ض و ط و ظ و ع و غ و ء و علامات الاعراب .

إن العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف وبكثرة الحروف الساكنة ، وبإصالة الحروف المتحركة . وتطبيق قواعد النحو على الكتابة العربية يرجع عهده الى القرن الثامن الميلادي ، وقد حددت تلك القواعد بدقة وعناية ، مع مراعاة طبيعة اللغة العربية ، فأصبح من المتعذر تعديلها أو تبديلها . ففي خلال أربعة عشر قرناً أخذ الكتاب والقراء المنتشرون في الاقطار الكائنة بين ضفاف الهندوس شرقاً الى شواطئ المحيط الاطلسي غرباً ، يتطلعون بأبصارهم الى ذلك الادب الخاضع لتلك القواعد النحوية والاملائية الدقيقة . نعم ان هذه القواعد يجب أن تدرس وتراعى . ولكن هل هنالك لغة في العالم بلا قواعد نحوية واملائية جديرة بالدرس الجدي ؟

ان ثقافة المسلمين المتكلمين باللغة العربية ورفاهيتهم ، متوقفتان على العلم . قال نبينا صلوات الله عليه : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . وبهذه الروح ، علينا ان نعمد في سبيل نشر الترية وما يترتب عليها الى التحرر من المساوىء التي نشكو منها الآن .

نظرات في الأدب العربي الحديث

لعل من الجرأة ان اتحدث عن الادب العربي المعاصر وانا
الأجنبي الذي يعيش بعيداً عن الاقطار التي تتكلم بهذه اللغة العربية
الجميلة ؛ تلك البلاد التي تحرر أدبها تدريجياً من قيوده التي كبته
طوال العصور الماضية . ولست أعرف من آثار الادب العربي المعاصر
الا تلك التي يرسلها إليّ اصدقاؤني ، ومعظمهم من المصريين وبعضهم
من السوريين .

وعلى هذا ، استميج القراء عذراً ، وارجو أن يعتبر حديثي
مجرد تأثر سطحي إكتسبته بالتأمل العاطفي . وهو ليس نقداً محيطاً
بالموضوع أو بحثاً كاملاً له . ويعلم القراء جيداً أن الادب هو التعبير
عن الافكار والاحاسيس الشخصية للكتاب في أي عصر . وهؤلاء
المؤلفون والكتاب ليسوا مستقلين عن عوامل متى تؤثر فيهم وتقرر
اتجاهاتهم وأفكارهم وأساليبهم ومواضيع انتاجهم .

وفي العصر الذهبي للادب العربي ، كان نظام المجتمع وايد
القوى الانتاجية التي كانت سائدة في تلك الاوقات . وقد كان المجتمع

مكوناً من طبقة مهيمنة تعيش على دخل ضخم يعود على أفرادها من ضياعهم الزراعية ، ويضمنه لهم العمل المتواصل للعبيد . وكانت الطبقة المسيطرة مرتبطة تمام الارتباط بالحاكم نفسه يحيط به أفرادها بصفتهم عبده الأوفياء في السلام والحرب مقلدين في حياتهم الشخصية أساليب الخلفاء . وقد أقاموا قصوراً ضخمة أثروا بها فخر الرياش وملاؤوها بالآنية الفضية والذهبية ، وتعجرفوا وتبهرجوا وسط حشود من الموالى والخدم والحشم . عاشوا حياة الرغد والترف ، وهذا الترف في ذاته لم يكن تبيداً للثروة الوطنية لأنه اتاح عملاً للملايين من الصناع الذين انتجوا احتياجات هؤلاء الأغنياء وتسببوا في رقي صناعة التجارة والنحاس والنسيج والخزف والورق والسلع الأخرى التي أثارت إعجابنا .

وقد اجتذب ثراء الطبقة المسيطرة ، الشعراء الموهوبين الذين خدموا بعبقريتهم القصور بأسلوب يتفق مع نظام ذاك المجتمع . ففي حفلات السمر المسائية ، كان هؤلاء الشعراء ينشدون اشعارهم لإدخال السرور على قلوب السادة ولمرحهم ، الذين كانوا يجزلون لهم العطاء . وكانت مواضيع هذه القصائد وأشكالها محدودة ، فقد كانت قاصرة على احتياجات القصور . كان هذا فناً قاصراً على الطبقة الراقية . وقد تطورت أجزاء من القصائد العربية القديمة إلى تعبيرات أدبية منفصلة : مدح — هجاء — غزل .

وقد قرر الأساس الاقتصادي للمجتمع في القرون الوسطى مستقبل الأدب العربي لقرون طويلة . ولما كان الأساس الاقتصادي

للمجتمع لم يتغير ، فقد بقي الموضوع والاسلوب في الادب على حالهما .
وكان لكل جيل شعراؤه : كبشار بن برد وابي نواس والمتنبي
والبحتري وأبي العلاء المعري وابن الرومي وابن زيدون والصوفيين ،
وكان بعضهم بعد أن أفل نجم العصر الذهبي للادب قد انحط وانحدر
الى مرتبة المقلدين ، ولكن تعبيراتهم واساليبهم قد بقيت على حالها .
وكان لدى افراد النخبة الممتازة من المجتمع الوقت الكافي
لكي يدرسوا ويتعلموا ، فاكسبوا علماً راسخاً في اللغة العربية التي
تطورت نحو الرقي بطريقة منقطعة النظير ، وكان الادب احدي
ملذات ومتعات الطبقات المثقفة الغنية . وكانت الجماهير الشعبية
لاتدرك الادب الرفيع ولكنها كانت تتلذذ بنوع شعبي من اشكال
الادب ، كانت لغته بسيطة ، ومواضيعه اكثر خيالا بحيث توافق
أذواق العمال والبحارة والتجار والصناع . وقد انتج هذا الادب
الشعبي آثاراً فنية ممتازة في طرازها مثل قصة « عنتر » و « الف ايلة »
التي ادجت فيها قصائد لكبار الشعراء أمثال أبي نواس وابي
العتاهية الخ ...

وقد أفل نجم العصر الذهبي وساد الجهل وحل محل العلم الذي
كان فخراً للأدب العربي وفخراً للحياة الاجتماعية أيضاً . وقد
وصف شهود العيان كيف انحط مستوى العلم في الاقطار العربية .
وعندما ظهرت في افق الاسكندرية قوات نابليون لم يكن لدى
المماليك أي فكرة عن ضخامة القوة العسكرية لفرنسا ، حتى لقد
كتب الشيخ عبد الله الشرقاوي بعض الموضوعات خلال رئاسته

أذكرها على سبيل المثال فيما يلي :

« ان أقصر الفراعنة أسنانا كانت أعمارهم مائتي سنة . وكان أطولهم عمراً ستمائة سنة . وان فرعون موسى كان قصيراً طوله ستة أشبار وطول لحيته سبعة ، وقيل كان طوله ذراعاً واحداً . وأن هذا الفرعون بقي على عرش مصر خمسمائة سنة . »

ولا يفصلنا عن هذا الزمن الحزن سوى قرن ونصف . ذلك الزمن الذي كان فيه بعض شيوخ الازهر - طبقاً للمصادر الوثيقة - لا يستطيعون كتابة اللغة العربية بلا أخطاء . ولم أذكر هذه الامثلة لكي أؤلم أو أتنقداً أسلاف الكرام ، بل لكي أمدح الجهود والصبر والنتائج الباهرة التي حققها الادب العربي المعاصر . وقد فتحت حروب نابليون أبواب مصر نحو الغرب . وقد نهبت القوى الغربية ثروات مصر الخبوءة واستغلتها أقصى استغلال ، وقد ألقت مبادل اسماعيل بمصر في أحضان الاجانب ، وقضي على حرية مصر التي كانت منتظرة . وقد انتج البؤس الذي فرضته السيطرة الاجنبية على مصر نتائج مؤثرة هي إيقاظ الشعور الوطني وتغير أسلوب الانتاج نتيجة للاحتكاك بأوروبا .

وقد بقي البناء الاقتصادي لمصر مشابهاً لبنائها القديم الاقطاعي أي أن الأرض والثروة بقيتا في أيدي الاسرة الحاكمة ومواليها البكوات والباشوات . ولكن الثورة الصناعية التي غيرت وجه أوروبا لم تترك مصر بلا مساس . وقد وقَّدَ على مصر آلاف الاجانب ، وفتحت المدارس الأجنبية ، ونزح الى أوروبا الطلبة المصريون ،

وصارت مصر قطعة من أوروبا . وقد خلقت الاعمال التجارية طبقة متوسطة مثقفة في كل الفنون والعلوم الحديثة ، كما أوجدت أسلوباً جديداً للحياة والسكنى يختلف كل الاختلاف عن أسلوب الاجداد ويتمتعون بأنواع من اللهو تخالف الأنواع المملة البائدة من قصائد المرح المليئة بالمجاز والتشبيهات . وبقي الأدب الشعري سائداً كما كان ، ولكن جرساً جديداً ظهر له هو صوت الحرية . ولم تكن الحياة السياسية قد وجدت لها تعبيراً في الشعر العربي . ومنذ أن اقترب حزب الاتحاد والترقي التركي خطأ قمع الشعور الوطني للعرب ، فقد ولد هذا القمع بالتالي رد فعل قوي ، ونشأ أدب شعري وطني عربي استمر منذ ذلك الوقت ، أي بعد الحرب العالمية الاولى وخيبة أمل العرب في استقلالهم ، مما أضرم نار الشعر الوطني الى أقصاها . فظهر ولي الدين يكن وجميل الزهاوي وعلي الرماوي والرصافي وعبد الكريم عويضة وحسين الجبال وبدر الدين النعماني وخير الدين الزركلي وغيرهم في سوريا والعراق يمثلون هذا الاتجاه الوطني . أما مصر فقد بقيت لفترة قصيرة وفيه للتقاليد الدينية التي ربطتها الى الخلافة والدولة العلية . ولكن عندما فرضت انكلترا حمايتها على مصر ، حيا كثير من الشعراء ، أمثال اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم وغيرهم السلطان حسين كامل كحاكم البلاد الشرعي برغم شعورهم الداخلي واعتقادهم بأن انتقال السلطة من تركيا الى حماية انكلترا لم تمثل حرية الشعب المصري .

وقد نشأ نوع جديد من الادب الشعري عندما قابل الشعراء

أعجاذ الماضي بالملايسات المخرنة الراهنة ، و رغبوا الشعب بالنضال في سبيل الاستقلال .

وقد كتب صديقنا القديم مصطفى لطفي المنفلوطي الذي خدم الادب العربي بتقديمه طرازاً أوربياً في قصصه برغم أنه كان يحذر من تقليد الغرب - فقال في نظراته :

« ان دعونا هم الى الحضارة فلنضرب لهم مثلاً بحضارة بغداد وقرطبة وطيبة وفينيقية ، لا بباريس وروما ونيويورك ، وان دعونا هم الى مكرمة فلنقل عليهم آيات الكتب المنزلة وأقوال أنبياء الشرق وحكمائه ، لا آيات روسو وباكون ونيوتون وسبنسر ، وان دعونا هم الى حرب ففي تاريخ خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وموسى بن نصير وصالح الدين ما يغنينا عن تاريخ نابليون وولنجتون ونلسون وبلوخر » .

ومثل المنفلوطي عدد غير قليل من الذين يقفون موقف الحذر من حضارة الغرب ويدعون الناشئة الجديدة الى الاقتداء بأسلافهم واتخاذ السبل التي سلكوها نحو اهدافهم .

ويتبين هذا الاتجاه الوطني في الادب في أدب كل شعب صغير وصل الى مفترق السبل ، وقد استلهم المؤلفون الموهوبون دائماً من الماضي المجيد لتشجيع الافكار التقدمية ، ومما لا ريب فيه أن المخترعات الحديثة أمثال القوة الكهربائية والمواصلات السريعة آتية كلها من الغرب ، وانها قد أثرت في أحوال الشرق العربي أقوى تأثير . وقد بدأت حضارة الشرق العربي تقوم على ارض صلبة .

كالاهرام في مصر ، هي اللغة العربية والتقاليد الاسلامية .
وبادرت مصر الى الاشتراك في تطور الادب الجديد فوراً .
ومما اجتذب نظري اكثر من غيره ، ورأيته يبشر بمستقبل زاهر ،
هو القدرة على الانتقاد وجرأته . وقد كان الدكتور حسين هيكل
في كتابه « ثورة الادب » ينتقد بجرأة وشدة الاتجاه الذي يتخذه
الادب ، ولم يكن الدكتور هيكل ضد تأثير الثقافة الغربية ، ولكنه
بين أهمية بقائها عربية اسلامية . وقد أوضح ان الرواية الادبية
الطويلة لا يمكنها ان تتقدم في قطر عربي اسلامي مادامت الروايات
لا تصف الحياة الاجتماعية ، ومادامت المرأة منعزلة عن المجتمع .
وينتقد الدكتور هيكل « أنانية الرجل المسلم » وانعدام التعاون
الاجتماعي ، وهو يلوم المؤلفين المصريين لأنهم لا يستمدون
ملاحظاتهم من الحياة الواقعية ، بل من الكتب ، وبالتالي فلا يمكن
ان يرقى الادب الى مراتب الحقيقة . وهو يذم الكتاب لنفاقهم
وربائهم وعدم اخلاصهم . وقد نشر كتاب الدكتور هيكل منذ
أربعين عاماً ، ومع أننا نعتبر نقده شديداً جداً لانستطيع ان ننكر قيمته
لجرأته وصراحته ، والشعب الذي يحتمل هجوم النقد ، ولو كان
شديداً ، لابد ان ينجح في مضمار الادب .

وقد أعقبه ناقد آخر أشد منه عنفاً ، هو الدكتور طه حسين
هذا العبقرى الراسخ في علمه والرجل البالغ الحصافة الذي أثبت
شهرته بكتابه المعنون « الايام » ، فهو يدعو الى امعان النظر في أهمية
الادب العتيق الاغريقي ، إذ أهملت الحضارات الشرقية دراسة

المؤلفين اليونانيين واللاتينيين القدامى منذ القرون الوسطى ، مع أن العرب كانوا المترجمين لآثار هؤلاء المؤلفين والمبشرين بها في الغرب في القرون الوسطى . وقد تفرقت السبل فيما بعد ، فنهل الغرب من الحضارة الكلاسيكية بنهم ظامى ، وبقيت الثقافة اليونانية واللاتينية المحور الوحيد للدراسة في الجامعات البريطانية بينما نسي الشرق الاسلامي تراثه النبيل .

وحينما نشر كتاب « الاخلاق » لاريسطو في ترجمة أحمد لطفي السيد عن اليونانية ، تشكك الكثيرون في نجاحه . وقد مال المسلمون العرب الى نسيان فضل أسلافهم الكرام في هذا المضمار . وقد أصاب الدكتور طه حسين المرمى في النقطة الحساسة في كتابه « صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان » إذ ذكر أن الثقافة العصرية الحقيقية لا يمكن تخيلها دون معرفة جذور هذه الحضارة ، وتوجد تلك الجذور في الادب الكلاسيكي . ومن الخطأ العميق الجدال في ان الشرق منفصل عن الغرب ، لان الحضارة والثقافة الاسلاميتين تستمدان قوتها من القرآن الكريم وهو الكتاب المقدس المنزل والمتمم للتعالم الاخلاقية التي وجدت عند الغربيين ، والعلوم والفنون التي نشرها العرب ونقلوها الى النصارى أثناء القرون الوسطى ، مستندة الى آثار المفكرين اليونانيين مثل حضارة الغرب تماما . فليس هناك فرق أصلي بين الحضارتين النصرانية الغربية والاسلامية الشرقية ، لان كلا منهما ينبع من نفس المصدر ، ونحن مدينون للدكتور طه حسين لخدماته الهادفة الى

تنوير الادب اليوناني الكلاسيكي . فقد أشار الدكتور طه الى أن أوروبا ذات حضارة مركبة ، وهكذا كانت الحضارة الاسلامية في عصرها الذهبي ، وينبغي أن تستمد قوتها من كل منابع التعليم لكي تنتج آثاراً ذات قيمة .

ونعود الى الدكتور حسين هيكل وهو ينتقد في كتابه عن الادب القومي اصطناع الاسلوب عند شكيب أرسلان . فهو يصنع الكلمات ، وهو أستاذ في هذا الفن ، لكن الشيء الأهم في الادب ليس الالفاظ ، بل المعنى العميق . والمؤلفون الاوربيون برغم أن لغتهم تقادم عهدها ، قد خلقوا روائع ادبية ، لانهم عبروا في اخلاص عن الافكار والاحاسيس التي سادت في عصرهم ، ولا قيمة للادب الا إذا استمد مواضيعه وأهدافه من حياة الشعب قاصداً تحسين أحواله . ويرى هيكل الفائدة تذكر من نقل عناصر أجنبية الى الادب المصري . وكل أدب مصطنع مقضي عليه بالفشل من البداية . ويوجد جدال بين ممثلي مذهب الفن للفن ، وبين ممثلي المذهب القائل ان الادب الطبيعي تعبير عن عبقرية الشعب ينبعث من حياته ومشاكله وآماله الدنيوية في شكل غني بالطبع . وينتمي هيكل الى الفئة الثانية من النقاد ، واتجاهات الحياة الاجتماعية العصرية في جانبه . وقد خطا في روايته « زينب » في طريق الادب الواقعي الرومانتيكي .

وقد كان الادب الفرنسي أكثر الآداب تأثيراً في واحد من أكبر القصصيين المصريين وهو محمود تيمور . فقصصه تصف حياة

مصر في كل مظاهرها ابتداء من الطبقة السفلى الى الطبقات المرفهة بأسلوب لطيف . وهذا النوع من القصص أدب حقيقي مكتوب بتعمق وتبحر في شتى دروب الحياة . ولحمود تيمور مسرحيات رائعة ، بعضها مأخوذ عن التاريخ العربي مثل « ابن جلا » أو « اليوم خم » واصفاً حياة امرئ القيس الشعرية وبطولته . ورواياته الطويلة مثل « نداء المجهول » تعرض حكاية رومانتيكية في لبنان تجذب القارئ بخيالها من البداية الى النهاية . أما مسرحيته كليونباترا في خان الخليلي ، فانها تدفع القارئ الى الضحك من عجز عصابة الامم .

وكم كنت أود لو أستطيع الاسهاب في الكلام عن آثار تيمور ، ولكن تمنعني الرغبة في الايجاز عن هذا المقصد . وإني ألفت أنظار قرائي الى مقالتي عن محمود تيمور في « اسلاميك ريفيو » سنة ١٩٥١ وهي التي ترجمت الى العربية أيضاً .

وأما صديقي العزيز توفيق الحكيم فقد أهدي الى حوالي العشرين كتاباً من روائعه الأدبية . وهو شاعر متفنن وكاتب مثقف الى ارفع الدرجات ، وجد مواضيع وأفكاراً دمجها في رواياته مثل عودة الروح ، وهي تجربة لادخال العامية في الحوار والفصحى في الوصف . وكانت محاولة جريئة ، وقد عرض للمشكلة التي كانت تعترض الادب العربي : « هل يحيد الادب عن الطريق الموطوء منذ قرون فيخلق أسلوباً جديداً لا يستطيع الحروف العربية أن تعبر عنه ؟ ام يتابع النحوية في طراز معتدل

عصري ؟ » وفي روايته « أهل الكهف » صورة حوارية لفكرة « ماعسى أن يحدث في خيال النائمين الذين يستيقظون بعد قرون ؟ » وقد كان لهذه الصورة رواد في الادب الشرقي سبقوه في شكل مظاهر وتأملات عن الحياة بعد الكون الدنيوي . ولكن توفيق خلق بلغته الشعرية البسيطة أثراً بزرّاً به الجميع ، وهو جدير بأن يترجم الى اللغات الاوربية .

وأما صديقي العزيز المرحوم عبد القادر المازني فأني أؤنبه احتراماً لما كان له من قدر كبير . فقد حاز بقطعه الأدبية والنقدية قصب السبق بين الكتاب . وقد انغمس في ماضي الادب العربي الذي زوده بأفكار جديدة . وكان مرتبطاً ارتباطاً قوياً باسم صديقه عباس العقاد الكاتب المكثر الغزير الانتاج ، والذي بلغ عدد كتبه حوالي أربعين مجلداً . وكتابه « مطالعات » و « ساعات بين الكتب » هما مجموعة مقالات نشرت في جرائد شتى ويخرج فيها من حدود العالم الاسلامي وينتقد ويعلق على آثار الكتاب الأوربيين الكبار أمثال « ماكس نوردو » و « أناتول فرانس » وغيرهما . ويعرض فلسفة « إيمانويل كانت » المفكر الألماني . وأسلوبه هو الأسلوب الصعب . وهو يطلب الحجج من النقاد ويرفض الذوق الشخصي الفردي في حكمهم على اعماله الادبية .

ويمثله في ميله الى الكتب العلمية الاجنبية سلامة موسى ، ولكنه يختلف عنه في نظراته . وهو أحد علماء الاجتماع الذين بحثوا مذهب النشوء والارتقاء والتطور « لداروين وسبنسر » ويناضل

بقلمه في سبيل الافكار الثورية . وهو مثقف متبحر في الأدب
الفني الأوروبي برغم أنه يميل بدون وعيه الى المذهب الرومانتيكي
الذي يسلك المسلك القائل بأن الجنس البشري يمكن ان يصل الى
السعادة بوساطة العقل والفكر .

وعلى تقيضه ابراهيم المصري الذي عرض على القراء المصريين
أحسن آثار الادب الأوروبي في كتابه « الفكر والعالم » . وهو
يعارض تصنيع الحضارة . وهو يندب الآلة ، مثل شريط الخيالة
الناطقة ، الذي جعل الانسان كالآلهة . وآراؤه قد دحضت بتطور
السينما الاحداث . ولنضرب مثلاً بالأوبرات الغنائية الكبرى فانها
يمكن اخراجها في الفضاء بوساطة الفيلم بطريقة تفوق اخراجها
على المسرح الضيق . والآلات لا تستعبد الفكر الانساني بل بالعكس
تحرر الجسد الانساني من حدوده الضيقة وتعطيه امكانيات لا يحلم
بها . وفي كتابه « صور الجيل » يقترب من فلسفة بيرغسون كما
يبدو في كتابه « ايفولوسيون كرياتريس » حيث يبرر سيادة الروح
على المادة . وفي كتابه « متعلمون وشعب » يبرز موقف طبقة المثقفين
والطبقة العالية التي لارابطة تربطها بالشعب وهو يطالب بتربية أوسع
تتمكن الشعب أن يصبح جمهوراً من القراء للمؤلفين . وفي كل شعب
صغير ينبغي أن يناضل المؤلف في جبهتين : الجبهة الاولى تأمين رزقه
والجبهة الثانية خدمة تقدم الأدب . و ابراهيم كاتب جرىء وجدير
بالاعتراف بفضله .

وأما فكري أباطة فقد كان محامياً ، وفي أحد أيامه المفعمة

بالعمل قرأ في الصحف عن أن المعتمد البريطاني سيسافر من مصر ،
فجلس من فوره وكتب مقالة فكاهية عن هذا الحادث . وانفجر
ضاحكا بعد الانتهاء منها . وقد تعجبت الكاتبة على الآلة من السبب
في ضحكة مخدومها هذه الضحكة الجهورية . وقرأت المقالة سرأثم
انفجرت ضاحكة هي أيضاً . وسمع الخادم الضحكة ورغب في معرفة
السبب ، ولكن الفتاة لم تفصح عن السر ، الا أنها أرسلت المقالة
الى جريدة « الاهرام » ونشرت ، وأصبح فكري أباطة كاتباً رغم
أنفه ، واستمر في متابعة مقالاته بنجاح .

وأما صديقي بشر فارس فهو مثال الجنتلمان العلامة ، يعيش في
وسط الامراء ، وكتابته أيضاً تتم عن ذوقه السليم وعمق معرفته .
وكتابه « مباحث غربية » هو أحد روائع البحوث الاستشرافية .
وقد سمعت أنه الى جانب رسوخه في العلم ، يبرز كل الطهارة في اعداد
ألوان الطعام اللذيذة ، لكن زميله في هذا المضمار هو زكي طليمات
المخرج المسرحي .

ومن الصعب أن أعدد كل الكتاب الذين نشأوا خلال السنوات
العشر الاخيرة . ولا أعرف سوى الذين تكرموا عليّ بارسال
مؤلفاتهم . وكم كنت أود لو بقيت في البلاد العربية مدة طويلة أقرأ كل
ما ينشر ، لكن وجودي في بلاد بعيدة عن العالم العربي ، يوجب عليّ
أن أقصر اهتمامي على بعضهم فقط .

وكان الروائيون هم الذين جذبوا أنظارني الى آثارهم .
فالأدب الروائي هو الصورة الحقيقية للعصر ، وهو شكل الأدب الذي

يعبر عن اخلاص المؤلف وارتباطه الوثيق بالحياة الخافقة . وترجمة حافظ ابراهيم لرواية فيكتور هوغو « البؤساء » تدل برغم أنه كان يناعر أموهوبا ، على أنه لم يدرك طبيعة وسجية ومهمة الأدب الروائي . فقد اعتبر هذا الاثر ذا القيمة العالمية الذي هدف الى ايقاظ شعور فرنسا الوطني ، لعباً بسيطاً بالسجع . أما الترجمات المصرية الاخرى للروايات الأوروبية فلم تكن الا خلاصات سطحية لاتعكس روح الاصل . واللغتان الفرنسية والانجليزية مقروءتان على نطاق واسع وقد اكتشف بعض المؤلفين المصريين في روائع الروايات الأوروبية الطراز الذي يستخدمونه لاثارة اهتمام شعبهم . ولو كان ثمة شكل أدبي غريب عن مذهب « الفن للفن » لكان هو الأدب الروائي . فليس هو شعراً وليس هو موسيقى ، ولكنه بناء صلة للاحساس والحوادث والأفكار التربوية والدروس ، إنه في كلمة واحدة صورة صادقة للحياة في كل مظاهرها . فهو يتطلب مقداراً من الاخلاص بقدر ما يتطلب الشعر ، ويتطلب مقداراً من الرسوخ بقدر ما يتطلب التاريخ ، ويتطلب مقداراً من الفن بقدر ما يتطلب الموسيقى . ولقد حسيّت الروايات المصرية الاولى بفرح عظيم . وكانت رواية علي أحمد باكثير « الثائر الاحمر » قد أثارت اعجابي ، فهي رواية تاريخية تابع فيها عن قرب الحوادث التي يقصها المؤرخون المسلمون ؛ هي رواية اجتماعية ، لأنها تدور حول مسألة الثورة الاجتماعية في القرن العاشر . وقد كان بطليها حمدان قرمط مؤسس الحركة الشيوعية القرمطية . وهو يفسر كلمة « قرمط » بأنها

« أحمر » للتسهيل، لأن اللون الأحمر أصبح في أيامنا شعار الثورات الاجتماعية . وقد أدمج في روايته قصة غرامية ربما كانت حقيقية ، وتخفف من جري الرواية . وهو يعرض مشاهد حية شائقة مملوءة بالمشاعر الانسانية ، والقارىء من قراءته في رضاء تام .

وقد حاز باكثر جائزة بمسرحيته « السلسلة والغفران » وهي مأساة كالمأساة اليونانية القديمة . فيها توتر يدعو القارىء الى الشعور بمقدار نجاحها لو عرضت على المسرح ، ويخفف من توترها الشديد ظهور جارية تقوم بدور فكاكي . وهي تعرض عرضاً محزوناً لعقوبة الجرائم التي تقود البطل الى حتفه . وقد تأثر المؤلف بالمأساة اليونانية القديمة الى عمق معين . وقد ترجم « اوديب » بأسلوب لا يعلى عليه الى العربية .

فلننظر الى بعض الروايات الأخرى . فرواية نجيب محفوظ « البداية والنهاية » تحكي حياة اسرة في القاهرة . والذي ينظر الى حياة القاهرة نظرة سطحية ، لا بد ان يتحير من عمق هذا الأثر واتساعه إذ يعكس الحياة القاهرية في كل نواحيها . وقد أحبت النزعة الرومانتيكية ان ترى في الحياة الشرقية شعرية وخيالا زائفين ، لكن مثل هذه الرواية مثل صورة شمسية ملونة ، فأشخاصها من لحم ودم وليسوا آدمى ، وبعض مشاهدنا تطفح بالحياة حتى انني تخيلت نفسي وانا في بلادي النائية جالسا أشاهد شريطاً سينمائياً ، أو ماشياً في دروب ضيقة بين محلات القاهرة ، وأشم رائحة أزقتها واسمع اصوات اشخاص الرواية .



المؤلف بعد ان اعلن إسلامه وادى فريضة الحج

ومع هذا فما زال فيها الكثير من الرومانتيكية . فقد صور حب
احد الأشقاء نحو بهية في رقة ، واما نفيسة البائسة ، أختهم
الدميمة ، فقد كانت تعمل خياطة لتعول الأسرة وتحلم احلام
الفتيات اثناء خياطتها اثواب العرس للفتيات الأخريات . وقد
رضيت بودّ ابن البقال وسقطت ضحية لشهواته . وتتأرجح الرواية
بين الامل واليأس في مشاهدتها الهيجية ، وكان احد الأشقاء
الثلاثة وهو حسن ، خبيثاً ، يعيش حياته القذرة في النوادي الليلية
بين اللصوص . وقد نشب عراك بينه وبين زنجي سكران ، وكان
وصف هذه المعركة من الروعة بمكان عظيم حتى لكأنه كتب بقلم
احد كبار الروائيين الاوربيين . وقد كانت الحياة الداخلية
المصرية بكل شوائبها ومزايها النبيلة والتقاليد المقدسة للاسلام التي
تتناقض مع المجتمع المتفرنج للطبقة الراقية ، تعرض أمام القارىء
في تسلسل غير منقطع ، وتختتم القصة بانتحار نفيسة التي تسقط
ضحية للتيار النهم للحياة الانفعالية . ومن المؤسف ان الرواية
تحوي الى جانب الفصول الفائقة الحيوية ، على فقرات كان المؤلف
يفلسف فيها المسائل ، مما كان يقطع مجرى الحكاية .

وقد كانت روايته « زقاق المدق » شيقة أكثر من غيرها ،
وفيها عرض المؤلف نفسه في قمة قدرته على تصوير الشخصيات .
وفي الرواية أشخاص مثل الطبيب المزيف الذي ينتزع الأسنان
من القبور في رفقة صديق له يعيش في قاعة مظلمة قذرة ، وكان
عمله ان يقوم بتشكيل العاهات للشحاذين . وثمة شخص آخر

من أشخاص الرواية ، وهي أرملة غنية تعمل خياطة ، ثم تتزوج
بفتى حديث السن .. كل هذا جدير بقلم ديكنز والرواية صورة
واقعية ، او بالأحرى هي صورة مظلمة للحياة القاهرية . وهي
تشير الى أما كن الداء وأين ينبغي ان يعالجها الطبيب الاجتماعي .
أما عبد الحميد جودة السحار ، فروايته « النقاب » قطعة
من الادب الواقعي أيضاً . فالحب في الاقطار الاسلامية يقتل
غالباً بوساطة التقاليد . وهذا التناقض يجعل حياة المحبين تتحول
الى مأساة . ومثل هذا الزواج المشؤوم موصوف مع كل ما يحيطه
من توتر في هذه الرواية . وعبد الحميد جودة السحار له رواية
أخرى هي « في قافلة الزمان » تظهر تأثير الروايات التي كتبها
دؤلجون أوربيون مثل زولا وتوماس مان ورومان رولاند التي
تحكي حياة الاجيال من اسرة واحدة من الجد الى الحفيد . ورغم
انقطاع سلسلة الحوادث فله الفضل في اظهار الكثير من العادات
القديمة المصرية والتي لازالت سائدة في الحياة العائلية ، وان
الخرافات لازالت منتشرة في البلاد . والرواية تشجع الوطنية
الصادقة وتدعو الى اصلاح التعليم والتربية . والوصف طافح
بالحياة ونزغته تميل نحو الاصلاح الاجتماعي ، وهذا فضل جدير
بالذكر .

ولا يفوتني ان أذكر شيئاً عن رواية عبد الحليم عبد الله
« شجرة اللباب » وهي مليئة بفلسفة الحب الأفلاطوني والحب
الواقعي ، ويتخللها وصف للحياة القروية . وأسلوبها مليء

بالتشبيهات ، وهو ينم عن رسوخ علم الكاتب ، وموضوع الرواية الحقيقي هو التناقض بين حياة المسلمين في الماضي وحياتهم اليوم . وقد نال هذا المؤلف نفسه جائزة أدبية عن روايته « بعد الغروب » وهي مثل سابقتها تبرز تسلسل الوقائع بكثير من التفلسف والمشاكل النفسية الى جانب أن العاطفية في بعض فصوله تبسط بساطها الأخضر فوق الحوادث ، كما نسمع نفس النغمة العاطفية في روايته « لقيطة » مع أن أسلوب المؤلف ينم عن قدرته الاستثنائية .

والى جانب هذه الروايات الطويلة ، كرواية « الأرض » لعبد الرحمن الشرقاوي ، وهي الجذيرة بالمدح والثناء ، توجد القصص القصيرة ونتاجها غاية في الغزارة والخصب . « فأرض الخطايا » لامين يوسف غراب ، تحتوي على قصص من نوع الجرائم ، الى جانب المواضيع الريفية التي تعرض الحياة الواقعية للفلاحين بما فيها من المشاعر المتأججة والمناقب والشوائب . ومن كتاب القصة القصيرة الجديرين بالذكر ، محمود بدوي ، الذي اهدي الينا في مجموعة قصصه صوراً مأخوذة مباشرة من الحياة الواقعية، مثل « سائق القطار » التي تحتوي على حوار عاملين في القاطرة التي تدوس رجلاً يعبر القضبان ، ثم يتأسفان كثيراً ، لالموت الرجل ، ولكن لتأخر القطار عن مواعده . وقصته « صوت الدم » هي صورة حقيقية للحياة في القرية ، وهي ذات أسلوب زاخر وسهل ومؤثر جداً ، وقد أوجد بدوي في كتبه القصصية نوعاً

جديداً من الادب ، فالحياة التي وصفها في قصصه ليست الحياة
الرتيبة المملة ولكنها الحياة الشرقية المرتبطة بأوثق العرى بالحياة
الاوربية . والمشاكل تنبع من الاصطدام بين وجود التقاليد
وبين حياة التصنيع النابضة التي أوغلت في الشرق . وهذا الأدب
الجديد وطني النزعة لانه لا يخشى أن يسفر النقاب عن كثير من
العيوب وكثير من الشوائب التي شوهت الحياة الاجتماعية المصرية .
وهو يعرض اخطاء جهل أنصاف المتعلمين ، وحقن الأغنياء ،
وآلام الفقراء ، وانانية الرجل ، وحماسة النساء وشهواتهن ،
كل هذا من اجل تعليم ومعالجة وتطوير المجتمع حتى يستطيع أن
يجاري بنجاح الجيران الذين كانوا أسعد حظاً في الغرب ،
لا في مضمار المعارك الاقتصادية فجسب ، ولكن في مضمار الثقافة
أيضاً .

وقد أفنعتني معرفتي المحدودة للأدب العربي المعاصر ،
بان المؤلفين لو تابعوا كتابتهم من ذوات أنفسهم وبكل إخلاص ،
فان عصرأ ذهبياً جديداً لا بد ان يشرق على الادب العربي .

صور من الأدب المجري

١ - بذرة تفتح

خلافاً لسائر الشعوب الغربية ، نرحلنا نحن معشر المجريين من الشرق ، حيث ترتفع الشمس مبكرة في الافق النقي الصافي ، ذلك الشرق الذي رفع لواء أروع الثقافات لأجيال طويلة . لقد انحدر أجدادنا المجريون من شعوب شرقية قديمة ، وتلقنوا حضارتهم على أيدي الفرس والأتراك .

وكان المؤرخون العرب أول من أشار إلى وجود شعبنا في التاريخ . كتب ابن دسنة أن « المجفرية هم عبدة الينوان » . وقد وصفهم « جرديزي » الفارسي بأنهم وثنيون . لقد شرد المجريون من الشرق إلى الغرب ، وأخيراً استقروا في بلاد المجر الحالية في سهول الدانوب الخصبة ، واعتنقوا المسيحية . اضطروا إلى ذلك اضطراراً . ففي قلب أوروبا ، وفي القرن التاسع الميلادي (الموافق للقرن الثالث الهجري) لم يكن هنالك مفر من شهر المسيحية بيد أن جموعاً كبيرة من الشعب متشعبة بالعقيدة الإسلامية حافظت على دينها ، طبقاً لأوامر القرآن الكريم . وقد أطلق المؤرخون المجريون

عليهم اسم « الاسماعيليين » ، وظن بعض العلماء أنهم فرس نازحون بصحبة المجريين المشتتين واستقروا معهم في تلك البلاد . والواقع ان المجريين الاسماعيليين لم يكونوا من الفرس ، ولم يكونوا من أتباع يحيى اسماعيل الامام السابع ، بل كانوا مجريين صميمين أحناف المذهب ، وظلوا حتى القرن الثالث عشر يرسلون الطلبة في بعثات الى حلب ، لكي يتلقوا العلوم الفقهية في جامعها الحنفي الذائع الصيت . وأقام هؤلاء المجريون المسلمون في مختلف انحاء البلاد . والاماكن ذات الاسماء العربية الموجودة الى يومنا هذا ، تدل على أن هؤلاء المجريين المسلمين كانت لهم طوائف كبيرة العدد ، موفورة الكرامة .

بيد أن الدين الكاثوليكي الروماني ضاق ذرعا بالعقائد الاخرى . فأصدر الملوك المجريون قوانين جائرة ضد المسلمين ، فأخذت الحكومة تسومهم شتى صنوف الاضطهاد والتنكيل . لكن الشعب المجري لم يكف عن مد يد المعونة اليهم ، كلما وحيثما استطاع الى ذلك سبيلا . هكذا تسلمت الاغاني الشعبية والقصص الشرقية الى القرى المجرية عن طريق المواطنين المسلمين . وقد أثبت المؤلف الموسيقي « بيلا بارتوك » أن الوزن والعروض في الشعر الشعبي المجري والموضوعات في الاغاني الشعبية المجرية ، من أصل شرقي اسلامي .

وقد أفل نجم الاسلام تدريجياً في بلاد المجر على أثر الاضطهادات المتوالية من جانب الكنيسة الكاثوليكية ومن جانب الملوك . ولكن شاءت سخرية القدر أن اضطر الملك اندريا الثاني الى الالتجاء الى

المسلمين المجريين لكي يضربوا له النقود الفضية التي يحتاج اليها
في الحرب الصليبية الخامسة المعلنة ضد الاسلام في بلاد الشام ، ذلك
لأن المجريين المسلمين ظلوا — بالرغم من الاضطهاد — يزاولون
التجارة وأعمال المصارف بنشاط عظيم في البلاد . كان وقت الرحيل
أزف ، والملك لم يلبس درعه بعد . فضرب المسلمون الاتقياء المؤمنين
العملة المجرية الجديدة بقالهم الذي كانوا يعتزون به وظهرت على
النقود شهادة : « لا اله الا الله » . هكذا ذهب الملك المسيحي ليحارب
المسلمين ، وهو يحمل نقوداً نقش عليها الشهادة . فكم في التاريخ
من مفاجآت !!

لم تكن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية باضطهاد الثقافة
والعقيدة الاسلاميتين في المجر فحسب ، بل حاولت أيضاً إبادة الادب
الشعبي المجري الاصيل . فما لبثت الاغاني الآسيوية أن اختفت رويداً
رويداً ، ليحل محلها الأدب المسيحي اللاتيني . ومن البديهي أن
الأدب اللاتيني الذي ساد أوروبا خلال القرون الوسطى كان ضعيفاً ،
إذ كان مقصوراً على الموضوعات الكنيسية وأساطير القديسين
المسيحيين . هذا هو الأدب الذي اكتسح في طريقه الأدب المجري
الصميم ، وما يميزه من قصص رائعة لا تجد لها مثيلاً الا في الأدب
الشعبي القديم . كانت الثقافة والعلم وقفاً على الأديرة ، اما عامة الشعب ،
فقد حرم من معرفة القراءة والكتابة . ولم يصادف العظاميون
والملاك العقاريون حظاً أوفر في هذا المضمار . ولا عجب ، فقد كان
الأدب قليل الشأن في نظر السادة الاقطاعيين الذين وجهوا همهم

الى امتطاء الجياد ومزاولة فنون القتال . كانت المجر جزءاً من
اوروبا فأصبح حظها من الجهل والامية مرتبطاً بمحظ سائر اقطار
أوروبا المسيحية . بل إن الشعراء الالمان الفوارس ، أمثال « ولفرام
إيشنباخ » مؤلف ملحمة « بر سيفال » كانوا أميين فدرجوا على
املاء قصائدهم . وما زالت بعض الأديرة المجرية تفخر بما تحويه من
مجموعات المخطوطات النادرة ، وفي مقدمتها دير باكوثي بيل ، حيث
بلغ عدد المخطوطات التسعين . ولكن أين هذا العدد بالنسبة الى
مئات آلاف المخطوطات المدونة والمبوبة في خزائن الكتب بالاندلس
الاسلامية ، والتي تناولت شتى الموضوعات من علم وشعر وفلسفة !

لذلك ، لأستطيع ان أقول الكثير عن الأدب المجري في
العصور الوسطى . لقد انتج القرن الثالث عشر الميلادي ، الموافق
للقرن السابع الهجري ، مرثية ثرية القاها قسيس باللغة المجرية ،
فكانت اول اثر ادبي اكتشف . بيد ان أسلوبها كان معقداً
ركيكاً مما حمل على الاعتقاد ان الذي القاها لم يكن مجرياً . ثم
جاءت بعض الاساطير المسيحية المكتوبة باللغة المجرية فاكملت هذه
الصورة . وهذا اللون من الأدب ، وإن كان بدائياً ، فقد بدا
صريحاً اصيلاً لا تشوبه شائبة المحاكاة والتقليد . ولما كانت اللاتينية
هي لغة التعليم الممثلة في أشخاص القساوسة الكاثوليكين ، فلا
غربة اذا عجزت عبقرية الشعب عن الظهور واضحة جليلة .

ثم حدث تغيير جوهري بعد معركة الإصلاح . اذ أخذت
سلطة الكنيسة تنزعزع من جراء التشكك ، اثر المذاهب العلمية

التي أخذت تتسرب من الشرق الاسلامي الى الغرب المسيحي عن طريق الحروب الصليبية . لقد عاد الفوارس من بلاد الشام حاملين معهم تجارب مثيرة الدهشة : أسلحة جديدة ، وتحصينات جديدة ، وطقوساً جديدة ، وآراء جديدة : كالجواد العربي الأصيل ، والشعار العربي ، والفكرة الاسلامية عن الشجاعة والفروسية ، والآثار الادبية للإسلام العربي . فلولا قصص « ألف ليلة وليلة » لما وجد بوكاتشيو الايطالي ، ولولا أبا العلاء الميري لما استطاع دافقي انتاج مؤلفاته الرائعة . لقد كان الأندلس القدر المعلى في تقدم العلوم والطب والفلسفة في اوربا خلال العصور الوسطى ، اذ تعلمت اوربا بأسرها على جهاذة الحكماء العرب ، أمثال ابن سينا وابن رشد وابن باجه . وقد تناول ابن طفيل في كتابه « حي بن يقظان » الموضوعات التي طرقتها دانيال دي فو في كتابه « روبنسون كروزو » بعده بزمان بعيد ، وعبارة « صودا » في اللغة اللاتينية في القرون الوسطى ، بل وحتى في مؤلفات القرن السادس عشر ، لاتعني شراب الصودا ، بل « الصداع » الوارد في كتاب ابن سينا وأسبابه المختلفة .

وعندما اخذ مصباح العلم الاسلامي يتأرجح وكاد يخبو ، مكسحاً في طريقه أعظم عبقریات الانسانية ، جاء ابن خلدون فأشعل ضوءه في اوربا ، ونشر مبادئ حرية الفكر ، وشعار النبي (صلى الله عليه وسلم) : « لارهبان في الاسلام » . وكانت صيحته المدوية نذيراً لطغيان الكنيسة ، فشجعت ذوي الهمم الوثابة ، على

تنظيم جماعات حرة اساسها الايمان المجرد من كل شائبة ، جماعات حرة كالجماعات الاسلامية سواء بسواء ، تختار وعاظها على اساس دينهم ، أي على اساس الكتاب المقدس . وقد أطلق على هذه الحركة اسم « حركة الاصلاح » ، فأيقظت الروح الفردية والروح الوطنية ، وترجمت التوراة الى اللغات القومية ، حتى يستطيع كل فرد ان يفهم دينه على حقيقته . فالشعب الذي ظل في منأى عن دينه من جراء جهله اللغة اللاتينية ، أصبح يستطيع ان يحكم بنفسه عما يجب ان يؤمن به وعما يمكن تركه للقساوسة . هكذا استيقظت اوربا من سباتها العميق ، وتفتحت اعينها للعلم ، متأخرة مئات السنين عن المسلمين الذين بدأوا منذ القرن الثامن ، يعلمون القرآن الكريم للاطفال في « الكتاتيب » وفي المساجد الكبرى ، كالأزهر الشريف ، وقد نسجت على منواله الجامعات اللاتينية في العصور الوسطى .

كانت حركة الاصلاح استهلالاً لعهد جديد في اوروبا . ونستطيع أن نؤكد في شجاعة تامة ، ان الأدب المجري بدأ وقتئذ . لم تكن الحرب مجرد معارك في ساحة الوغى ، بل كانت أيضاً معارك كلامية . فقد أخذ البروتستانت والكاثوليك يتساجلون ويتقارعون الحججة بالحجة ، والبرهان بالبرهان في شدة وعنف ، حتى فاق الخطر صليل السيوف . لكن المساجلات أدت الى نتائج عظيمة الشأن ، اذ كان النقاش يدور بالمجرية لا باللاتينية . فاللغة التي ظلت غافية في سبات عميق ، لا يتحدث بها الا القرويون ، اقتحمت في

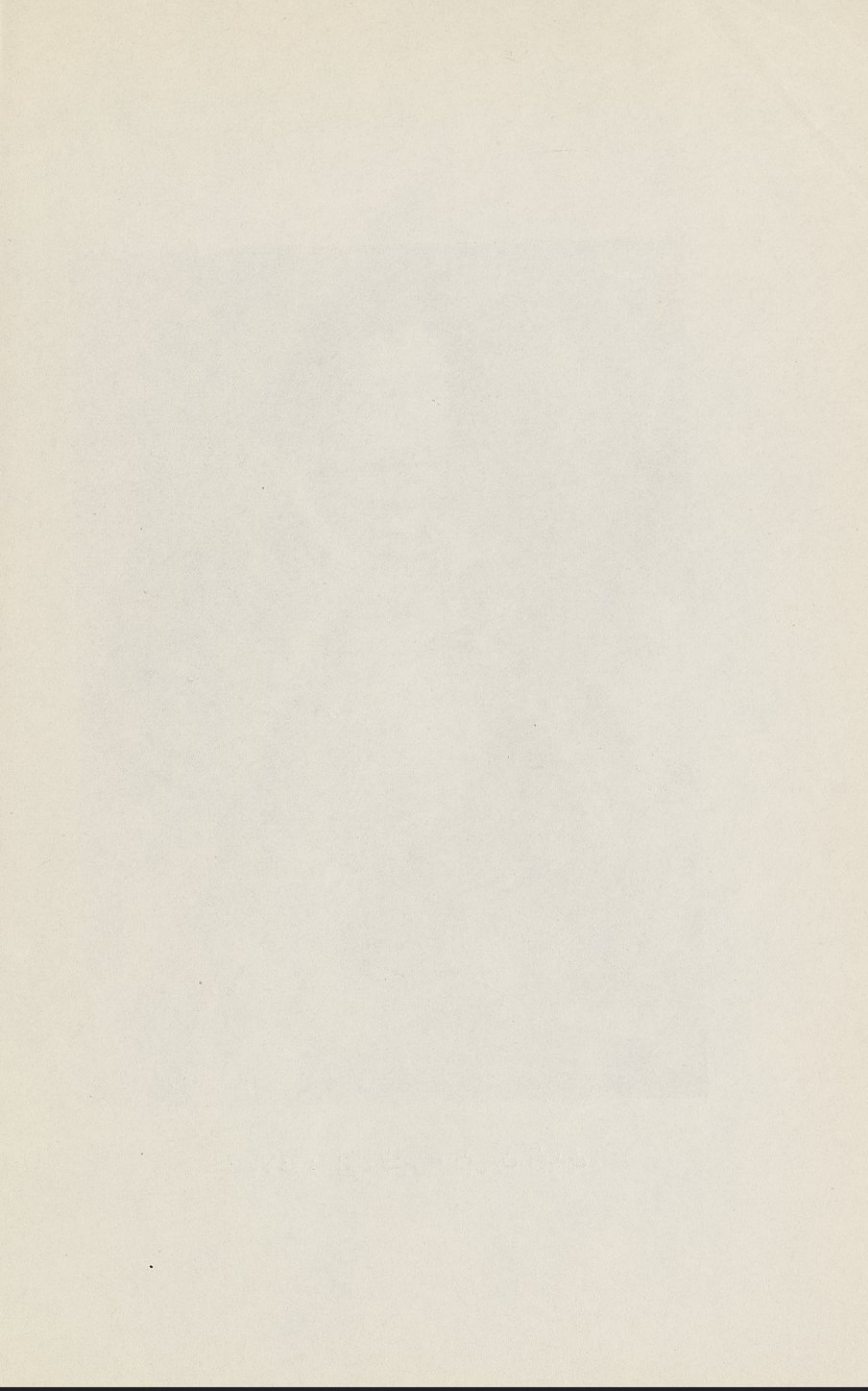
تيه وفخر أبواب الأدب . وكانت متلثمة في بادئ الامر ، لكنها
 ما لبثت أن ارتفعت الى مستوى البلاغة وقوة البيان . وما حلت نهاية
 القرن السادس عشر ، حتى انتجت طرائف مازالت موضع الاعجاب
 حتى يومنا هذا . وهناك شخصيتان عظيمتان تمثلان هذه النهضة
 المفاجئة : بالينت بالاشه Balint Balassi ، الشاعر المحارب ،
 وغاشبار كارولي ، مترجم الكتاب المقدس الى اللغة المجرية .
 سجل القرن السادس عشر افطع كارثة عرفت في تاريخ
 المجر ، فقد اباد العثمانيون الجيش المجري في معركة « موهاج »
 عام ١٥٢٦ ثم سقطت عاصمتهم « بودا » في ايدي الاتراك في سنة
 ١٥٤١ ووقعت سهول المجر الداخلية الوسطى تحت الحكم العثماني ،
 بينما ظل الجزء الكائن غربي الدانوب خاضعاً لسيادة أسرة
 هابسبورج . وانبثق شعور الشعب أيضاً الى قسمين . فقد اتجه
 المجريون الصميمون نحو المسلمين الاتراك ، نظراً الى توجسهم شراً
 من جانب حكومة هابسبورج الكاثوليكية ، فعقدت امارة
 ترانسيلفانيا معاهدة مع السلطان . ثم نشبت المعارك الدامية بين
 جنود الهابسبورج والانكشارية الاتراك في اراضي المجر ، فخربت
 البلاد وأصبحت أثراً بعد عين : دمرت القصور الحصينة وهدمت
 الجدران المنيعة ، وأخذ الاتراك والمجر يتبارزون وجهاً لوجه
 مما أدى الى انهيار الحضارة المجرية ، وتمزقها اربا اربا . بيد أن
 الايام القاتمة والآلام المبرحة التي عاناها الشعب ، قد وجدت منفذاً
 في الأدب . فالى جانب المناقشات الدينية المملة القائمة من فوق

المنابر بين القساوسة الكاثوليكين والوعاظ البروتستانتين ، سمع صوت الشعب يرتفع عالياً . فأنجب من العلوم عبقرية بالينت بالاشه Balint Balassi الرائعة . كان هذا الكاتب من الفوارس الأشراف ، وقد عرف حق المعرفة بين افراد معسكرات المسلمين الأتراك ، حيث تعلم كثيراً من الشعر الشرقي ومن اشعار الغزل التي كتبها باللغة المجرية . وفي ذلك الوقت ، حيث سيطر نفوذ القساوسة ، كان ينظر لشعر الغزل كأنه رجس من أعمال الشيطان . لكن قيثاره بالاشه ذات النغمات الشجية نفثت فيه الحياة ، خاصة وان ذلك الشعر كان مزيجاً متناسقاً من الثقافتين ، اللاتينية والجرمانية موضوعاً في قالب شرقي رائع . وقد جمع بالاشه أيضاً بين الاسلوب الابتدائي والاسلوب الغنائي . كان صديقاً للمسلمين الأتراك وعدواً للأسرة هابسبورج الكاثوليكية فارتد عن دينه أكثر من مرة في معمة الحروب . لكنه كفر عن ذنوبه بان مات بطلاً مغواراً . وقد مر بعدئذ شعر الغزل بفترة ركود امتدت اجيالاً ، ثم عاد الى الظهور مطبوعاً في القرن التاسع عشر .

كان بالاشه اول شاعر مجري اكتشف جمال الطبيعة وعبر عنها بأوصاف حية . لقد تغنى بالحقول السندسية الخضراء وبالغابة الوارفة ، وردد تغريد الطيور في ضوء الشمس الساطعة والنجوم المتألقة . ففي كل هذا ، كان بلا وراء تلميذاً للأدب الشرقي الذي لا يجارى في الاعجاب بجمال الطبيعة . ونعلم بلا شك أن الشعر العربي



بالت بالاشه : أول الشعراء المجريين المجيدين



أنتج الروائع في وصف الطبيعة .

ترجم غاشبار كارولي Gaspar Karoli الكتاب المقدس الى اللغة المجرية بعد ان حاول ذلك قبله كثيرون من العلماء البروتستانتين الذين تعمقوا في دراسة اللغات العبرية والآرامية والعربية واليونانية . فأسلوبه — بالرغم من صعوبته وغرابته على آذاننا الآن — ظل لزمن طويل نموذجاً للشعب المتدين الواسع الادراك ، وما زال حتى الآن باقياً في أسلوب الخطابة والكتابة ، لدى الاثقياء من الناس . بل ما زال وقع نغماته يثير الخشوع في القلوب بالرغم من تقادم عهده . وقد أنتج الجدل الديني ثماره في ميادين ما كان ينتظر أن يصل اليها . فشأنه في ذلك شأن المعتزلة في سالف الازمان . واستطاع الجدل ان يحمل الشعب على بحث الأمور بروية ودقة ، والتعمق في معنى الكلام ومبناه ، ودراسة الكون وأصله ومسبباته . وكانت حروب الاصلاح معاصرة لنتائج احد المخترعات التي أدت إلى انقلاب لم يسبق له مثيل في العصور السابقة : الا وهو آلة الطباعة . كانت مؤلفات « مارتين لوثر » زعيم الاصلاح العظيم ، اول كتب طبعت في المانيا ، وما لبثت الثقافة ان انتشرت سريعاً بواسطتها . اصبحت الكتب في متناول الجميع ، حتى افقر طبقات الشعب ، نظراً إلى ثمنها الزهيد . ثم جاء اكتشاف البارود ، فكان نذيراً بالقضاء على سيطرة الاقطاعيين . إذ صار في امكان اقل القرويين شأنًا ان يقتني بندقية . مما جعل درع الفوارس ضعيف الجدوى في دفع الأذى عنهم . تلك كانت الخطوة الاولى في سبيل الشعبية (الديموقراطية) .

أما الخطوة الثانية الخامسة في سبيلها ، فكانت اختراع آلة الطباعة .
لقد ولى الزمن حيث كانت الافكار وفقاً على القساوسة والأديرة ،
فاتسع نطاق التفكير حتى شمل النقد والمنطق ، وتطور إلى التشكل .
ثم جاء ديكارت — أو كاتيزيوس Castesius كما كانوا يسمونه
وقتئذ باللاتينية — وتحدى كثيرين من المتعصبين بعبارة المشهورة :
انتي افكر ، إذن فأنا موجود . كانت هذه العبارة شعاراً ، ومابثت
أن تطورت الى مذهب ، وهو مذهب العقليين . أخذ المتدينون
يتخوفون بادىء ذي بدء من هذه الخطوة الجريئة ، ظناً منهم ان
مذهب العقلية ما هو الا دعامة جديدة للدين . فالحقيقة ان هذا
المذهب لا يهدم الدين بل يؤيد العقائد الدينية بالبراهين العقلية ،
كما فعل الحكماء المسلمون ابن رشد وابن باجه وابن خلدون منذ
اجيال مضت .

وقد اتخذ البروتستانتيون من مذهب ديكارت سلاحاً حاداً في
كفاحهم ، اذ ترجم جون اباتزاي جري فلسفته الى اللغة المجرية ، ثم
شهد القرن السابع عشر عودة الكاثوليكية الى الحياة في المجر .
وبعد ان كان انقسام الشعب مقصوراً على الشؤون السياسية ، انقسم
ايضاً في الأمور الدينية . فالمجريون في السهول وصغار الملاك — بحكم
استقلالهم عن اسرة هابسبورج — استمعوا الى الوعاظ البروتستانتين
واعتنقوا مذهبهم . والقرويون المقيمون في المجر الغربية — التي لم
يحتلها المسلمون الا تراك — اضطروا الى اتباع دين ملاك الأراضى
الموالين لاسرة هابسبورج الكاثوليكية المذهب ، وكانت الظروف

الاقتصادية والاجتماعية أيضاً من العوامل المسيطرة على تقرير اختيار العقائد الدينية .

وجدير بالذكر ان المسلمين الاثراك الذين كانوا مسيطرين على الجزء الاكبر من البلاد ، لم يتعرضوا قط لحياة رعيتهم الدينية ، بل تركوا لهم الحرية التامة في مزاوله شعائرهم . بيد أن كثيرين من المجريين اعتنقوا الاسلام مما ادى الى دخول كلمات تركية عديدة ضمن مفردات اللغة المجرية . وقد ترجمت مؤلفات متعددة من التركية إلى المجرية ، وتعلم باشاوات بودا اللغة المجرية ، متخذين اياها اداة للمكاتبات الرسمية .

كان القرن السابع عشر مطبوعاً بطابع المذهب العقلي ، ولذلك لم يزدهر الشعر ، ولم يجد سبيلاً سهلاً الى القلوب . والشاعر المجري الوحيد الذي بزغ نجمه في ذلك العصر هو ميكلوش زرينجي Miklos Zrinyi ، اذ كتب ملحمة عن حصار الاثراك لحصن دافع عنه جده ولاقي فيه حتفه أمام السلطان سليمان القانوني . كان الشعر الحماسي في حالة انحطاط خلال القرن السابع عشر في أوروبا ، فجاء هذا الانتاج الأدبي المتأخر لاداء غرض خاص ، الا وهو ايقاظ الوعي القومي ، ولم يقصد منه الاجادة في الشعر . ورغم ذلك ، فقد ظل أثره باقياً وما زالوا ينوّهون به ويشيدون بذكره حتى يومنا هذا .

تعتبر نهاية القرن السابع عشر نقطة تحول في تاريخ اوربا . اذ عقد صلح ويستغالن في سنة ١٦٤٨ فانتت حرب اثلاثين سنة ،

لكن أوروبا لم تستطع أن تتنفس الصعداء الا بعد مضي اربعين سنة أخرى . لقد أدبرت حرب الثلاثين طبقةً لخطّة الانهياك ، فلم تقرر مصيرها معارك فردية ، بل وضعت خطط مؤداها تخريب كل فريق لأراضي الفريق الآخر الى ان يخنق الفريقان . وقد جاءت النتائج مخيفة مفرقة . اذ تحولت المروج الغناء والحقول الخصبة والغابات الكثيفة ، الى أراضي قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع . وهبط عدد سكان المانيا بعد انها كها الى أربعة عشر مليوناً . كان من الضروري استئناف النشاط على أسس جديدة ، لكن السلام لم يسد بعد . ذلك لأن الأمراء الألمان الخاضعين لاسرة هابسبورج ، بعد أن تصالحوا ، اشتبكوا معاً في حرب ضد الأتراك الذين هددوا فيينا في سنة ١٦٨٣ . وأخيراً هزموا هؤلاء الأمراء هزيمة نكراء ولم تمض سنوات معدودة حتى قذف بهم نهائياً خارج أراضي المجر وصدوا الى البلقان .

كانت حالة المجر المحررة مدعاة للاشفاق . اذ نزلت بها الكوارث ألواناً ، فهاجر بعض سكانها وهلك الآخرون . وان اردنا تصوير المصير الذي آل اليه أولئك القوم كفنانا ذكرأ ان المقاطعات المجرية الخصبة ، التي يسكنها الآن مليون من الأتراك في رغد ورخاء ، هبط عدد سكانها الى تسعين اسرة !!

وبعد ان ولى الحكم العثماني من البلاد ، سارعت اسرة هابسبورج الى اقتطاع المناطق القاحلة الجرداء لسكان أجنب ، أكثرهم من الألمان . وقد وهبت مساحات شاسعة الى بعض المخلصين

من الاشراف ، فخلقت من جراء ذلك طبقة اقطاعية جديدة .
هكذا عاد الشعب فوق تحت سيطرة كبار الملاك ، فتسرب اليأس
الى النفوس اثر الاستعباد السياسي والاقتصادي . كان
البروتستانتون مضطهدين ، والشعور الوطني المجري الذي لم يمسسه
المسلمون قط ، قد دهس بالاقدام بأساليب مزرية . وما لبث اليأس
أن تحول الى غضب شمل المجريين والفلاحين والاشراف .
فتسلحوا وتحالفوا ضد طغيان اسرة هابسبورج واعلنوا عليها الكفاح
بقيادة إمره تو كولي Imre Thokoly ودافوتزي في سبيل الحرية
السياسية والدينية . وقد وقع الحمل الاكبر من المعركة على عاتق
الفلاحين المجريين . ثم قدم لويس الرابع عشر ملك فرنسا — الذي
كان يحارب أسرة هابسبورج في الغرب — مساعدة ضئيلة الى المجريين
المتمردين . لكن انهزام الجيوش الفرنسية وعقد صلح أوترشت
غداها ، لم يترك املاً للمجريين في الاستقلال . ففر تو كولي
ودافوتزي من البلاد ، ولجأ إلى الاستانة محتمين بالسلطان .

والزعيمان النبيلان اللذان قادا معركة استقلال المجر الأولى
قد أغمضا أعينها الى الابد على ارض اسلامية ، حيث أكرم خليفة
المسلمين وفادتها ، وقدم لها العون الأدبي والمادي . وقد رأى
رودوستو Rodosto اللاجئين المجريين على ضفاف بحر مرمرية
ينتظرون بفروغ صبر حدوث تغيير سياسي ، من شأنه ان يعيد الحق
الى نصابه في بلادها . وما زال الشارع الذي عاش فيه اللاجئان
الوطنيان ، يحمل اسم شارع المجر (مجار صوفاجي) . ولقد احاط

أخواننا المسلمون في ذلك الوقت هذين اللاجئين بكل اجلال
وتكريم ، صادرين من قلب مخلص عطوف . ولا غرو ، فتلك هي
تعاليم الاسلام ، وما زال المجريون يحفظون أجمل ذكرى لهذا
الصنع الجميل .

لقد أرسل بحر مرمره نسائته الهادئة بعيداً حتى بلغت قلب
المجر ، إذ خلد كيليمين ميكيش Kelemen Mikes ذكرى
الشرق الاسلامي في « رسائله من تركيا » وهي قطع أدبية ينعكس
فيها جمال ذلك الشرق الرائع ، وهدوءه الجذاب . هذا الى جانب
ما في تلك الرسائل المنتورة من شعور وطني فياض . وما زالت
سطورها الأولى على شفاء تلاميذ المدارس الى يومنا هذا ، حيث
يقولون « انني لا اسمع وحدي خريز بحر مرمره الذي يخفف آلامي » .
وقد أنتجت حرب الاستقلال ، رغم ما فيها من بؤس ، لوناً
أدبياً جديداً ، هو الأدب المعبر عن آلام الشعب وشقائه . وقد
قال أحد النقاد : إننا اعتباراً من ذلك الوقت ، بدأنا نعرف أعظم
الشعراء شأنًا ، هو « الشعب » . فالأدب الحقيقي يجب أن ينبعث
من قلب الشعب ، وأن يجد تعبيره على لسان الشعب . لقد أنتجت
حروب الاستقلال شعراً أدبياً أصيلاً مفعماً بالشعور الوطني العميق
الفياض . ومعبراً عنه بأسلوب بسيط صريح ساذج . وكان طابعه
الانفعالي مستمداً من الحالة المحزنة التي آلت اليها البلاد ، ومن
كارثة الانهيار التي انتهى اليها الكفاح في سبيل الاستقلال والتحرر
من الاستعباد الأجنبي .

فالشعب اليأس لا يترنم الا بالآغاني الحزينة ، وهكذا كان
 أمر الشعب المجري . لقد حرم من حريته الوطنية فأخذ ينظر الى
 تاريخه المجيد ويوازن بين الماضي والحاضر . عندئذ تملكته نفسه
 المرارة ، واجتاحته الآلام واطلق لخياله العنان ، فتفتح عن أدب
 روائي ، أجزل فائدة لتاريخه القومي من الأدب البحت . لقد
 أصبح لزاما على الشعب أن يعيد بناء مدنه المخربة وقراه المهارة .
 وفي مثل هذه الحالة ، يصعب على المرء أن ينتج روائع في الأدب .
 حل القرن الثامن عشر فكان فاتحة عهد سلام نسبي ، مما
 ساعد حكم أسرة هابسبورج على الاستقرار وعلى تبوء مركز
 مرموق بين الملوك والأمراء الأوربيين . وتحسنت الأحوال
 الاقتصادية نوعا ما ، فشيدت المباني الفخمة والقصور المنيعة على طراز
 غريب شاذ . واكسبت البلاد روعة وبهاء ، وكستها حلة من
 السناء . وكانت ماريا تيريزا Marie Theresia ، ملكة المجر
 الجديدة ، هي الرمز الحقيقي لهذه العظمة . ففي سنة ١٧٤١
 حفزت روح الفروسية والبسالة في الأمة المجرية ، اذ ظهرت وسط
 الجموع ، حاملة ولي عهدها بين ذراعيها ، وطلبت الى المجريين
 معاونتها في الكفاح المستميت ضد فريدريك الأكبر ، ملك
 بروسيا . وهذه بلا مرء شجاعة جديرة بالاعجاب والاطراء ،
 خاصة وانها صادرة من امرأة . وأظهر المجريون روحا حماسية
 شرقية ، مضحين بدمائهم وأرواحهم في سبيل الدفاع عن الملكة .
 واستمرت الحرب سنوات طويلة ، امتاز فيها الخيالة المجريون بالبسالة

والاقدام ، ونازلوا الأعداء منازل شهدت لهم بالبراعة في فنون القتال . ومكافأة لهم على صنيعهم ، شكلت الملكة من النبلاء المجريين ، فرقة حرس خاصة ، لاسهر على قصرها في فيينا . وكان الغرض الذي ترمي اليه الملكة من جراء ذلك ، هو اخضاع هؤلاء المجريين الافكار الغربية الحديثة بحكم اتصالحهم المباشر ببيتها ، مقاومة روح التمرد التي دفعتهم الى القيام بثوراتهم السابقة . أرادت الملكة احلال روح الانوثة في نفوس المجريين ذوي المراس الشديد والوعي الحي . لكن النتيجة جاءت على تقيض ذلك ، وقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .

فوجود حرس الشرف المجري بجوار قصر هابسبورج ، أتاح لأفراده فرصة الامام بالأدب الفرنسي الزاهر ، وارتشاف أفكار الموسوعيين (الانسيكلوبيديين) الفرنسيين . فكان لمصنفات فولتير فعل السحر على جورج بيشنهي George Bessenyei من أشرف المجر . فحاول تأليف مسرحية مؤثرة ، ناسجا على منوال استاذ الروحي . وفي ذلك الوقت ، كانت المسرحيات مجهولة من المجريين ، إذ كانت بلادهم خلوا من المسارح . وقد وضع هذا الكاتب بعض القصائد التعليمية وقصة سياسية ، الغرض منها ايقاظ الشعب من سباته العميق . واقترح انشاء مجمع علمي مجري تشجيعا للدراسات العلمية باللغة المجرية . وكان له عدد كبير من التلاميذ ، نذكر منهم باروتزي Baroczy وبارجاي Baresay واورتزي Orcsy ، وغيرهم من أفراد حرس الشرف الذين أنتجوا آثاراً أدبية قيمة . أما في

هنغاريا نفسها ، فقد وضع الراهب آنوش Anyos بعض المراثي المؤثرة التي تمزق القلوب من شدة الاسى .

ويرجع لحرس فيينا الفضل في فتح النوافذ ، التي سمحت للهواء الطلق بالهبوب من فرنسا الى المجر . وفي ذلك الوقت ايضاً ، وضع راهب آخر يدعي دوغونيج Dugonics قصة مجرية ، على غرار الأدب الالمانى ، الذي أخذ ينال حظوة كبيرة في الاوساط الشعبية . والمصنف الذي وضعه هذا الراهب هو كتاب ضخم يروي حوادث مثيرة ، بأسلوب خيالي وشعور مفعم . وقد انتشر هذا الكتاب في الطبقات الشعبية ، بخاصة بين النساء المجرريات ، فأصبح عنوانه « ايتلكا » ، اسماً محبباً ، وأطلق على البنات عند مولدهن . هكذا اتخذ الأدب الالمانى لباساً مجرياً وسار بخطوات واسعة في طريق الانتصار .

بدأ النسيم العليل يهب في سهول المجر . فقد اتسع نطاق المدن ، واستردت التربة خصبها ، وارتفع مستوى المعيشة في الطبقة الوسطى ، فوجدت النساء فراغاً من الوقت للتسليمية وقراءة الكتب ، وتذوق الأدب المجرى . كان تمثيل الشعب مقصوراً فيما مضى على طبقة الاقطاعيين . أما الآن فقد تقدمت الطبقة الوسطى ، فأصبحت قادرة على تشجيع الانتاج الأدبى . في العصور السابقة ، كان هنالك مؤلفون فقراء ، ولم يوجد جمهور قراء . أما الآن ، فقد أصبح هنالك جمهور يقرأ ويستمتع ويطالب بالمزيد .

ظهرت قصص عديدة ، متأثرة بالأدب الالمانى ، لكنها أعادت

أحياء العقلية المجرية ، واخذت تصف حياة الشعب — الطبقة العليا والطبقة الدنيا على السواء — ولم ترتفع هذه القصص الى أوج السماء ، بيد أنها كانت موفقة من حيث مواجعتها لاحتياجات الشعب . امتازت هذه القصص بالطابع المنطقي ، ولم تخل من روح الفكاهة ، بخاصة عندما تعمقت في تحليل حياة الشعب تحليلاً دقيقاً . وقد أخذ نطق اللغة المجرية يتسع متمشياً مع احتياجات الأدب .

حلت نهاية القرن الثامن عشر فنشرت الفروع في أوربا بأسرها ، اذ ثار مستعمرو أمريكا ضد استغلال التاج البريطاني ، وأعلنوا استقلالهم عن الدولة البريطانية . وكان انتشار الأبناء بطيئاً آنئذ ، ونظروا الى عدم وجود خطوط حديدية أو مواصلات بحرية بخارية أو اذاعات لاسلكية ، فلم تكن أبناء أمريكا اذن هي التي فتحت أبواب سجن الباستيل .

كان المجتمع الاوربي مؤسساً على التمييز بين الطبقات . فكان هنالك أمراء لا يتزاوجون الا بينهم . وكان هنالك كونتات وبارونات ونبلاء يفخرون بأنهم يعيشون بمعزل عن الشعب . والتزاوج بين أحد العظاميين وأحدى الفتيات الفقيرات لم يكن يحدث وقتئذ الا قيماً ندر . فاذا حدث ، أدى للقطيعة التامة بين من يعقده وطبقته الاجتماعية . كان هنالك مثل دارج يقول : « يبدأ الانسان من البارونية » (وهي أدنى ألقاب الشرف) . وقد يصبح أحد محترفي التجارة أو المهن اليدوية متيسراً أو غنياً ، لكنه لن يحظ بالامتيازات التي كان يتمتع بها العظاميون والاشراف . لم تكن هنالك أية

فكرة عن المساواة بين مخلوقات الله عز وجل ، فالآراء الاجتماعية المبشرة هي التي تقرر مصير أي مولود جديد . فانظر الى الفارق الكبير بين هذا النظام الاجتماعي المتأخر المنحط ، وبين تعاليم الاسلام وتقائده التي تكفل المساواة للجميع ، وتضمن تكافؤ الفرص للجميع في هذه الحياة ، ماداموا يعملون بالوصايا السماوية ويعيشون حياة التقوى والصلاح ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . لقد دعا الاسلام لفكرة الحكم الشعبي (الديمقراطية) وعمل بها منذ ظهوره ، فكان له قصب السبق على فرنسا ، التي أعلنت بعد ذلك بألف سنة شعار ثورتها المعروف : « حرية — مساواة — أخاء » .

ان اسباب الثورة قد استمدت جذورها من أصول أعمق غوراً من حركة تحرير مستعمري امريكا من تدايير الضغط البريطانية . تحالفت عوامل عديدة في الكفاح ضد نظام أكل عليه الدهر وشرب ، وأصبح غير ملائم للعصر في نهاية القرن الثامن عشر في اوربا ، تحالفت عليه وكسبت المعركة النهائية الفاصلة . أما تلك العوامل العديدة فهي : العلوم ، وكشف اسرار الكون ، والافكار الفلسفية التي نشرها جامعو دائرة المعارف ، ونشوء طبقة متوسطة حمة النشاط نالت ثروة بفضل المخترعات الفنية . فتحررت واشتد ساعدها . بدأ بنو الانسان يحترمون الحقوق الممنوحة اليهم من الله عز وجل ، ويحتقرون الحقوق التي اختص بها لانفسهم ملوك متعجرفون وغالبا فاسدون سيئو الخلق .

انتشرت فكرة الاخاء والمساواة في اوربا ، حيث كانت الانانية مهيمنة على النظام الاجتماعي والاقتصادي . أما في المجر ، فكان الشعب منقسماً الى طبقتين : الأشراف الذين يملكون الارض نظير أداء الخدمة العسكرية ، والمعفون لهذا السبب من الضرائب ؛ والفلاحون الذين يكسبون في خدمة الارض ويرهبون بالضرائب الباهظة ، دون ان يتمتعوا بأي امتياز . وكان للأشراف محاكمهم الخاصة ، بل كان لهم الحق في محاكمة أتباعهم وتوقيع العقوبات عليهم . فمثل هذا النظام أصبح لا يتلاءم مع تقدم المعلومات الفنية . وحدثت الثورة الفرنسية فحسنت الخطط الحربية ، بأن أدخلت عليها نظام المعارك من خلف المتاريس ، ودربت الشعب على اطلاق النار واصابة الهدف . هكذا أصبح تنظيم الجيوش شرطاً أساسياً للصمود أمام المشاة الماهرين في الرماية . وهُزم الفوارس والأشراف المقاتلون بالسيوف والرماح ، بالرغم من شجاعتهم وبسالتهم ، اذ انهم عجزوا عن مجاراة جيش من المشاة خفيف الحركة ، ومتفوق عليهم في الخطط الحربية . وأسطع مثال لهذا التفوق ، هو انهزام المماليك الابطال في معركة امبانة .

سار الادب المجري جنباً الى جنب مع الثورة . فحروب نابليون لم تقتصر على نقل الجيوش عبر أوربا ، بل نقلت اليها أيضاً الافكار والآراء . أما الادب المجري ، فقد سار في اتجاهين مختلفين : أحدهما ثوري ، والآخر ثقافي ، متأثراً بالادب الالماني . وقد نسج جوزيف كارمان Joseph Karman على منوال «غيتة» في «آلام

فرتر « إذ وضع مصنفاً عنوانه : « وراثة فاني Fanny » ، وهكذا فعل دايكا Dayke في مراثياته . ويرجع لكارمان الفضل في تأسيس أول مجلة أدبية في المجر ، أطلق عليها اسم « أورانيا » . وفي سنة ١٧٩٠ ، افتتح في بودا أول مسرح للتمثيل باللغة المجرية . وهذا الحادث جدير بالتسجيل ، إذ أخذت اللغة المجرية العامية تفسح الطريق أمامها ، وتسير إلى الامام بخطوات سريعة . بدأ الممثلون والممثلات يجولون في انحاء البلاد ويوقظون الشعور الوطني من سباته العميق ، وينفثون روح الحمية والحماسة في النفوس . وكان الزعيم الأكبر في هذا المضمار هو فرنسيس كازينتزي Kazinesy . لم يكن هنالك صحف وقتئذ فاتخذ من مكاتبه وسيلة لتشجيع الشبيبة على الكتابة ، وترجم أروع المؤلفات وابدع المصنفات إلى المجرية ، عن الألمانية والانكليزية والفرنسية . لقد أخذ على عاتقه حملاً ثقيلاً ، وسجن سبع سنوات في سبيل آرائه السياسية ، لكن التنكيل والتعذيب لم يضعفأ عزيمته فلم يتحول عن الهدف الذي يرمي إليه وهو : إيقاظ الشعب المجري من الجمود ، وبعث آمال جديدة في النفوس ، وقيادة الأمة في الطريق المؤدي بها إلى مجارة أمم أوروبا الغربية ثقافياً واجتماعياً .

واليه يرجع الفضل في محاولة خلق لغة مجرية صحيحة . لقد حال دون وجود أدب مجري صحيح ماتحويه اللغة من عبارات قديمة أو مشتقة من اللاتينية ، أو منقولة عن لهجة البوير الغليظة . فالفكر الحديثة في حاجة إلى تعبيرات لغوية ملائمة لها . فابتكر كازينتزي

كلمات، واشتق كلمات أخرى من أصول موجودة . وقد لاقى كازينتزي
 بادىء ذي بدء اعتراضاً شديداً من جانب انصار المدرسة القديمة .
 لكنه انتصر في نهاية الأمر ، فاكسبت اللغة المجرية آلافاً من
 الكلمات الجديدة ، ولا تزال هذه الكلمات مستعملة حتى الآن . لقد
 كُتبت جميع المصطلحات الخاصة بالعلوم الطبيعية والكيميائية
 والفلسفية والفنية ، برداء مجري أصيل صميم . والمبتذل منها ما لبث
 أن اختفى من الوجود . أما التعبيرات الصميمة ، فقد سلكت طريقها
 إلى اللغة المجرية فاكسبتها قوة ، حتى أصبحت أوسع ثروة من اللغة
 الألمانية . فالمجريون يستخدمون الآن كلمات مجرية للتعبير عن « المسرح »
 وهي سينهاز لا « تياتروم » المستعملة في جميع اللغات ، وزئبق عبر
 عنها بهيجاني Higanj ، وكلمة الليتان Allitmany معناها مفعول
 به ، و « آلان » Alany معناها المبتدأ به ، و « خيتان » Vegytan
 معناها الكيمياء ، وآلاتان Allattan معناها « علم الحيوان » إلى
 غير ذلك من آلاف الكلمات المجرية الأصلية التي لا توجد في اللغات
 الأخرى ، مما اضطرها إلى اشتقاقها من اللاتينية أو اليونانية .

واللغة الوحيدة في العالم التي فاقت اللغة المجرية الحديثة ، من
 حيث الجمال والأصل الصميم ، هي بلا شك اللغة العربية الكريمة ،
 التي أصبحت الآن أداة للتعبير عن أعمق مشاعر الأمة وأفكارها
 ووعيا القومي . قال الكونت سيجيني Széchenyi أحد المصلحين
 المجريين : « إن الأمة تعيش بلغتها » .

وقد أدى تجديد اللغة المجرية إلى إيقاظ الشعب ، فانتج في زمن

وجيز ، مصنغات أدبية تضارع أروع المؤلفات في الأءب العالمى .
لقد نما الأءب المءبرى وترعرع غءاة حروب نابليون ،
وسأفرد بمءى التالى لهذا الموضوع .



٢ - عصريوني شاعر الثورة

كانت حروب نابليون فاتحة عهد جديد في تاريخ العالم . فهي توازي من حيث أهميتها اكتشاف أمريكا ، بل وتفوقه خطورةً ، إذ أنها أدت إلى تطورات ذات شأن في الحالة الاجتماعية والاقتصادية للجنس البشري . فما كاد نابليون يطأ بقدمه أرض مصر حتى استيقظت الروح العربية الغافية ، واهتفت قنطرة الموصل بين مصر وأوروبا . لقد كان الشرق الرائع استاذاً فيما مضى ، استاذاً تلمذ عليه الأوروبيون . أما الآن ، فإن الشرق يتجه صوب الغرب ليسترد دينا له في عنقه .

ثم هزم نابليون وعاد النظام الملكي ، واستقرت السلطة لأسرة هابسبورج ، فانبعث في أوروبا جو من الحُكم المطلق أحدث رد فعل شديداً من قبل الشعوب المشغوفة بالحرية . وقد ترتب على ذلك كفاح بين الحكومات الهادفة إلى تركيز السلطة ، وبين الشعب المقاتل في سبيل التحرر من السيطرة الباغية . لم يكن هذا الكفاح مجرد تنازع بين الأفكار ، رغم ظهور شتى المؤلفات الفلسفية الداعية

بشدة إلى إعادة تنظيم المجتمع بالتدريج . انتشرت المذاهب الفردية والوطنية وذاعت فكرة الحقوق الانسانية والكرامة الشخصية ، بطريقة لاشعورية ، اثر القوى المادية التي كانت تعمل خلف الستار بلا ضجة ولا ضوضاء ، ولكن في شدة واصرار ومثابرة . لقدولت الروح الانتهازية الناشئة عن حروب نابليون ، واصبحت خزائن الدول خاوية إلى آخر قرش ، مما اضطر حكومة فيينا إلى خفض سعر العملة ، فحلّ الخراب بذوي الثراء . وهبطت أسعار المحاصيل الزراعية ، دافعة معها إلى الحضيض ملاك الأراضي الذين يعيشون من ريعها . عندئذ سرّت روح السخط في الشعب ، وزادت حدة تداير الضغط وكبت الشعور التي اتخذتها الحكومة .

وفرضت الرقابة على الانتاج الأدبي ، فقيدت الحياة العقلية بسلاسل حديدية . وبلغ سوء الحالة مدىّ خطيراً جعل الاشراف الذين ظلوا حتى ذلك الوقت محتفظين بموقف محافظ ، يتألبون على الحكومة ويعرضون عن تأييدها . امتنع الملك عن دعوة البرلمان مدة خمسة عشر عاماً ، ووضع حكماً أساسه الارهاب والفرع . شكّلت الحاميات المجرية من جنود أجانب ، وأخذت الشرطة السرية تتجسس على آراء الشعب ووجهات نظره ، وبذل القصر أقصى جهده لقمع أية حركة وطنية . وقد أدت هذه الأعمال إلى رد فعل خطير ، وبعد أن كادت مقاومة الاشراف المجرية تهدأ لزمان ما ، عادت إلى سيرتها الأولى . وقد ظهرت هذه المقاومة على شكل مطالب وطنية ، اليك بيانها : احلال اللغة المجرية محل اللغة اللاتينية في المناقشات البرلمانية ،

وحرية احياء الماضي المجيد للشعب المجري المتمسك بالفكرة القائلة بأنه شرقي الأصل، رغم ثقافته الأوروبية، والذي لن ينسى شخصيته الشرقية الفذة ، وروحه المستقلة .

تأهب الخصمان لكفاحٍ مرير . فمن الجانب الأول، قوة الحكم المطلق وفكرة النظام الماسكي المستمدة سلطة من الله . ومن الجانب الآخر، ارادة الشعب بأسره ، ابتداءً من العامل الصغير إلى مالك الضياع والقصور . لقد اصطفت القوى المادية إلى جانب الشعب ، لكن رجال السياسة لم يعترفوا بأثر هذه القوى الفعالة في الثورات التاريخية ، وهذا هو شأنهم في كثير من الأحيان .

اكتشف «وات» القوة البخارية ، وأنشأ ستيفنسون أول خط حديدي ، وأنزل فولتون إلى البحر أول باخرة . لقد بهرت هذه المخترعات الشيطانية ابصار العالم ، وتملك الفزع النفوس لتتأجها البعيدة المدى . ولنذكر على سبيل المثال القصة التالية : اقترحت كلية الطب بجامعة المانية انشاء حاجز خشبي على جانبي الخطوط الحديدية، لحماية المسافرين من الدوار الذي يصيبهم من منظر الاشجار والمنازل التي تبدو كأنها سائرة بسرعة خاطفة أمام أعينهم ، ويلاحظ أن سرعة القطارات كانت لا تتجاوز وقتئذ خمسة عشر ميلاً في الساعة !

وقد أحدثت الاكتشافات العلمية ثورة صناعية ، إذ حلت الآلات محل الأنوال اليدوية ، فترتبت على ذلك ثورة اجتماعية عجز عن مقاومتها نظام الحكم المطلق .

لم تلبث موجة التطور العالمية أن اجتاحت المجر . كانت البلاد خاليةً من المصانع ، نظراً الى طابعها الزراعي البحت . وقد ساء استغلالهما من جراء نظام الاقطاع واهمال الاقطاعيين . لذلك عجزت عن مجاراة الغرب في تطبيق نظام الزراعة بالآلات . فالعوامل الاقتصادية هي التي هدمت صرح المجر الاجتماعي من أساسه .

والآن لنلق لمحة عابرة على المجتمع المجري في السنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر . كان الشعب منقسماً الى عدة كتل : كتلة عديدة من الفلاحين المستعبدين ، وفريق من سكان المدن المتمتعين بشق الامتيازات ، وأخيراً طبقة الاشراف . كانت طبقة الاشراف هي الشعب الحقيقي ، اذ درج أفرادها على الاقامة في منازلهم الريفية ، لمراقبة أتباعهم أثناء خدمة الأرض . كانوا معفيين من الضرائب ، واعتادوا قضاء أوقات فراغهم في الصيد ، وتناول الطعام ، والتدخين ولعب الورق . وقلما كنت تتخيل صورة أحد الاشراف المجريين إلا والغليون بين شفتيه . وقد يتعلمون اللاتينية ، أما الذين يعرفون الألمانية ، فقلما كانوا يعنون بقراءة الصحف الأجنبية ذات الاسلوب الجاف ، بخاصة وأن الرقابة قد دأبت على تشويه مايكتب فيها . والنزر اليسير من الاشراف كان يقيم في بودابست ، عاصمة البلاد التي كانت بعيدة جداً في التلال ، فاتخذت مركزاً للحكمة العليا دون سواها ، الى جانب أعمالها التجارية . وكانت التجارة غالباً

في أيدي اليونانيين والأرمن وبعض اليهود .
وإذا لاحظ أحد الأشراف في ابنه ميلاً لتلقي العلم ، ألحقه
بأحدى المدارس العليا . وظلت أكثر المقاطعات طويلاً محرومة
من المدارس . أما معاهد التعليم الأولى ، فكانت تحت إشراف
الكنيسة ، بيد أن الأفكار تستطيع التغلب على الحواجز الفاصلة
بين البلاد . ففوة البخار نفدت البخار في الهواء ، ولن يستطيع
سور الصين نفسه أن يمنع وصول نداء الزمان الى الشعب المجري
المغلوب على أمره .

تحفّز بعض الأشراف المضغوط عليهم من جانب أسرة
هابسبورج ، فأخذوا يناضلون مطالبين بحق المجريين في التثقف .
كان في بودابست كرسي للأدب المجري . لكن القصر عيّن
فيه استاذاً لا هم له إلا إقامة العقبات في طريق تقدم الادب .
وأول كرسي الأدب المجري انشئ في سنة ١٨٣٧ بمدينة
ديبريتسين Debrecen وكانت أعظم خطوة الى الأمام هي التي
سجلت سنة ١٨٢٥ اذ انشئ بقرار من البرلمان مجمع (أكاديمية)
للعلوم على أثر تقديم الكونت سيجيني Széchenyi ما أغلّته
أدلاكه الواسعة من اراد لمدة سنة . وفي خلال تلك الدورة
البرلمانية ، صدر قرار باعتبار المجرية لغة رسمية للبلاد ، بدلاً من
اللاتينية .

مما لا ريب فيه أن الضغط يؤدي الى الانفجار . لقد التهب
شعور المجريين ، فأخذوا يتطلعون الاعمال التي تدر عليهم الربح

وترفع مستواهم الاجتماعي وكيانهم الانساني . وكانت أول خطوة
خطوها الى الأمام هو انشاء دور الطباعة .

لقد تولت تلك الدور طبع ثمار النهضة الأدبية واليقظة القومية .
لكن المؤلفين كانوا غالباً في حاجة الى جمع الاشتراكات مقدماً ،
بما حال دون ظهور أي كتاب مالم يجمع خمسمائة اشتراك على الأقل .
ازاء هذه الحالة أصبح لزاماً على المؤلفين ان يكافحوا في جهتين :
كسب قوتهم اليومي ، واعلان آرائهم عن طريق مصنفاتهم
الأدبية .

كان الجو الادبي في أوروبا ، غداة حروب نابليون ، مشبعاً
بالروح الابتداعية (الرومانتيكية) . وكانت مميزاته الطموح لحياة
أقرب الى المثالية ، حياة تخيلية ، متنائية عن الحقائق الجافة ،
التي نشاهدها في حياتنا اليومية الرتيبة . فاذا نظرنا بامعان الى
تاريخ الجنس البشري لوجدنا دائماً قوتين متنافستين تعمل احدهما
ضد الاخرى ، واحدة تؤديان كل من جانبا الى تنشيط حركة
التقدم في العالم . وفي مقدمة مميزات القرن التاسع عشر ، انه شهد
مخترعات فنية وعلمية لم يحلم بها من ذي قبل ، وقد قربت هذه
المخترعات بين الانسان وبين الحقيقة الواقعة ، وانتهت الى غزو المادة
واخضاعها لارادته . ومن جهة أخرى ، كان عالم الحقائق هذا
تواقفاً لتنظيم التفكير الانساني . وقد عمل على ادراك هذا الهدف
فريق من كبار العلماء والمفكرين ورجال الاقتصاد والمصلحين
الاجتماعيين ، أمثال : آدم سميث وريكاردو وبنثام وستيوارت ميل

وسان سيمون ، وفورييه وغيرهم ، ممن وضعوا الأسس والمذاهب التي أرسيت عليها الأنظمة في المجتمع الانساني ، فأصبحت متلائمة مع الظروف الجديدة . نعم إن هذه الأنظمة كانت تجريبية ، ولكن يمكن اعتبارها ابتداعية (روماتيكية) لأن أساسها هو التخيل بأن الانسان يستطيع الاعتماد على التأمل العلمي لتنظيم شئونه وتحقيق سعادته .

وقد أدى الضغط من جانب الحكومة الى اتجاهات ابتداعية (روماتيكية) في الأدب وفي الفن على السواء . إذ حاول الكتاب أن يلجوا في الماضي ، فأخذوا يصورون مجده وبهاءه . عندئذ رنوا بأنظارهم إلى الشرق الاسلامي ، ذلك الشرق الذي اجتذبهم اليه منذ اجيال وما زال يجتذبهم . فالشرق الاسلامي ، كما يتخيله هؤلاء الكتاب والشعراء ورجال الفن ، عالم مفعم بالعظمة والسعادة والروعة والجلال ، عالم تعيش المرأة فيه حياة غامضة في عزلة « الحريم » الموحشة ، فكل شيء في ذلك الشرق شعري تخيلي . وقد فتح هذا الخيال طريقا للاستشراق ، فأخذ العلماء يدرسون العلوم ، ويطرحون البحوث الشرقية ، ويصنفون كتب النحو . فكل شيء غير واقعي أصبح جذابا وتخيليا . وقد كنت وما زلت اشعر بميل خاص نحو القرن التاسع عشر ، نظرا إلى طابعه التفاولي الساذج . فالانسانية فخورة بالتقدم العلمي الذي تم في خلاله .

وقد شهد القرن التاسع عشر ايضا نشوء طبقة اجتماعية متوسطة ، تمتاز بالثراء وسعة العيش ، إلى حد انها ضارعت الطبقة

العظامية أهمية وشأناً . كما شهد قيام طبقة من العصامين تمتاز بالوعي القومي والكرامة الشخصية . لقد ظهرت الروح الوطنية ، وتحالف المتحدثون بلغة واحدة ، وسحقوا تحت اقدامهم الحقوق الوراثية البالية ، وقاوموا الفكرة القائلة بأن الملوك مبعوثون من الله ، اولئك الملوك الذين كانوا يعاملون رعاياهم معاملة الحيوان الأعجم .

وبدهي ان العصر الابتداعي (الرومانتيكي) ، لا يمكن أن يستقر دون ان يراق على جوانبه الدم . لقد حاولت ايطاليا ان تتخلص من نير البابا ، وقاومت المانيا منافسات صغار الامراء المنقسمين بعضهم على بعض ، وكافح المجرىون لاسترداد استقلالهم . اما ابطال المكافحة فهم الشعراء والكتاب المجرىون ، وقد وجدوا في اللغة المجرية المحددة اداة ملائمة للتعبير عن افكارهم ، فاستعملوا هذا السلاح ببراعة جديرة بالاعجاب . وفي مقدمة هؤلاء الشعراء ميخائيل غكناي وتيز Gokonai Vitez ، ذلك المعلم البروتستاني الثائ ، الذي لم يجد لنفسه الهأمة استقرارا في مجتمع قتله الركود وانتابه الجلود ، فارتفع صوته مترنما بقصائد رائعة تعبر عن شعوره العميق . أما قصائد الغزل التي كتبها ، فهي تعبر عن اليأس بأسلوب جعل مؤلفها يتبوأ القمة في فن الشعر الغنائي . وما زال الشعب المجرى يردد الحان الشجيرة وهي صدى اشعور الشعب وآلامه وآماله ، عبر عنها بأسلوب طلي ، وايقاع جذاب . وعند الاحتفال بذكراه لمناسبة مضي مائة وخمسين سنة على وفاته ، اكتشف أنه درس الشعر الشرقي ايضا ، وانه وضع بحثاً قيماً عن شعراء العرب ومؤلفاتهم . وما زال يعد من أعظم

الشعراء الغنائيين ، وهو الذي مهد الطريق لاسكندر بيتوفي ، الذي جاء بعده ، فكان وحيد زمانه وفريد عصره ، وفخر الأدب المجري . كان غكناي يمثل الطليعة في الشعر الغنائي المجري الحديث . أما اسكندر كيشفالودي Kisfaludy ، فقد عبر عن ادب الاشراف في كتابه الملى بالشعور الفياض وعنوانه « غرام هيمفي » Himfy وهو متأثر بقصائد الشاعر الايطالي بتراركا . « وغرام هيمفي » نداء صادر من قلب مكلوم ، يشكو مرارة الحب ، ويبكي الهجر والجفاء . أما شقيقه البائس السيء الحظ ، كيشفالودي فقد اسس ندوة ادبية في بودابست سماها « اورورا » أي الفجر ، وانشأ ايضاً مجلة ادبية ، فتحت صدرها لانتاج الأدباء الشبان ، ممن هجروا الاساليب الاتباعية (الكلاسيكية) واستعاضوا عنها باللون الابتداعي (الرومانتيكي) . وكان شارل كيشفالودي Kisfaludy اول مؤلف للقصص القصيرة وقد صادف هذا اللون اقبالاً عظيماً لدى الجمهور . ثم كتب تمثيليات حظيت بالظهور على خشبة المسرح ، ولم تظل كغيرها في بطون الكتب القديمة المهجورة . وقد اختار أفراد فرقته من بين عمال الشعب ، فأخذوا يجولون من مدينة إلى مدينة ، ومن قرية إلى قرية ، لتمثيل المسرحيات داخل قاعات انتشر الدخان في جوها ، أو داخل حانات او مخازن قمح ، وقد كانوا جميعاً متحمسين لمثلهم الأعلى ، ألا وهو نشر هذا اللون الأدبي الجديد في جميع انحاء البلاد .

وقد دعم الحركة الابتداعية (الرومانتيكية) عباقره ظهوروا

على غير انتظار في الميدان الأدبي . نذكر منهم ميخائيل
فوروشمارتي Vorosmarty الذي كتب ملحمة غنائية ، اقتبس
موضوعها من تاريخ المجريين المجيد ، الذين غزوا بلادهم هذه منذ
ألف سنة . وأسلوب فوروشمارتي مثير للعواطف ، غني بالمفردات ،
مما أدهش قراء مؤلفاته فأقبلوا عليها إقبالا كبيراً . ونال من
جراء ذلك شهرة منقطعة النظير . وقد حل مشكلة اللغة المجرية
الحديثة المولد ، فأخذت تسيل تحت قلمه كالماء السلسيل ، في
عظمة وروعة ، ولكن بلا غموض ولا تعقيد . واستخدم كل عبارة
قادرة على الثبوت ضد التيارات القوية في مستقبل الأيام ،
ووضع نموذجاً مستقراً ، توسع فيه من جاء بعده من الأدباء
المقلدين له .

صقل كازنتسي Kazinezy وغيره من المصلحين ، العبارات
اللغوية صقلاً صناعياً ، أما فوروشمارتي Vorosmarty فقد ابتكر
الكلمات بغريزته ، واشتق الاستعارات والتشبيهات من أفواه
الشعب وارتفع بها الى مصاف الأسلوب البليغ الرقيق . هذا
هو في رأينا الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه الأديب
الاصيل . فمثله مثل الشجرة التي تمتد جذورها الى اعماق الارض ،
لكن فروعها تمتد في عظمة وفخار ، الى عنان السماء .

سيطول بنا المقام اذا حاولنا ان نذكر ولو بإيجاز أسماء
عشرات الكتاب والشعراء المجريين الذين أدوا للأدب أجل
الخدمات ، رغم ما لاقوه من الظروف الغير مواتية . لذلك

سأكتفي بالنزول اليسير مع الإشارة الى الاتجاه العام الذي سار فيه الأدب المجري الناهض خلال عشرات السنوات الاولى من القرن التاسع عشر . ولا غرو فهذه الحقبة تعتبر بحق العصر الذهبي للأدب المجري .

سار النثر الأدبي في بلاد المجر على اعقاب الشعر ، متأثراً بالنزعة الابتداعية « الرومانتيكية » التي كانت سائدة آنئذ . وقد أقبل الجمهور على قراءة القصص التاريخية المثيرة للوعي القومي ، والتي تصف ماضي الشعب المجيد وما لاقاه من تضحيات في سبيل كرامته واستقلاله . بيد ان المذهب الابتداعي « الرومانتيكي » في اوربا ، صادف دائماً في طريقه تيارات مضادة . وهذا امر طبيعي في جميع الحركات الاجتماعية . فاذا انتابت الشعب روح اليأس والقنوط ، تحول تفاؤله إلى تشاؤم واعتبر التقدم بطيئاً مهما كان سريعاً ، وطالب بالزيد من المعجزات . لقد حدث رد الفعل التشاؤمي هذا في الأدب المجري . اذ وصف جوزيف ايوتفوش Joseph Eotvos في كتابه « عمدة القرية » حالة التأخر التي آلت اليها القرية ، داعياً لرفع مستواها . وفي كتابه « الكريزيون » سرد قصة جماعة من الرهبان المتزمطين ، وأشار فيه إلى حياة الزهد التي تنتشر كما هبت رياح التطير والتشاؤم ، وهي الرياح التي تجتاح العالم المتحضر من وقت الى آخر .

أخذت الافكار تغلي في أنون التاريخ . كان البرلمان يعقد جلساته وقمئذ في مدينة پوزوني Pozony غربي بلاد المجر ، وهي

الآن من المدن الزاهرة في تشيكوسلوفاكيا الحالية ، ومعروفة باسم
براتيسلافا . لم يكن أعضاء البرلمان منتخبين من الشعب ، بل
مندوبين من قبل اشراف المناطق ، الذين كانوا يصدرون اليهم
تعليمات صريحة دقيقة بشأن تصرفاتهم . أصبح هذا البرلمان — او
الدييت كما كانوا يدعونه — ساحة قتال تتبارى فيها المصالح المتضاربة
والآراء المتنافرة . كان المحافظون — ويزعمهم الكونت سيجيني —
يناصرون فكرة التطور البطيء مع مراعاة الظروف الاقتصادية
للبلاد ، فهو سينتهي حتماً إلى استقلالها سياسياً . وكان سيجيني
متشبعاً بروح النفعيين الانجليز ، متشبعاً لآرائهم ، فأخذ يدعو لتنفيذ
سياسة مستقرة من شأنها ان تنهض بالشعب اقتصادياً ، ثم ترتفع
بمستواه الثقافي . كانت فكرة الثورة تفرعه . وقد نشر عدة بحوث
علمية ، شرح فيها نظريات بنتمام ومذهبه . وفي اعتقاده ان الشعب
المجري يجب ان يصبح بادئ ذي بدء ، في حالة رغد وسعة عيش ،
ثم يُثقف ويوجه إلى طريق الاستقلال . كان سيجيني عظامياً
(ارسقراطياً) معتدلاً مالم يسير الامر في اوربا ، لذلك كانت
اصلاحاته ترمي الى تحسينات عملية في الشؤون المجرية . فازدادت غلة
الأرض بفضل تنظيم مجرى الأنهار ، وتقدمت التجارة الخارجية .
لاقت سياسته السامية في ادخال تحسينات على شؤون البلاد ،
ارتياحاً عظيماً من جانب فريق لا يستهان به من اعضاء مجلس الدييت
في دورات انعقاده . بيد أن بطء الاصلاحات قوبل بشيء من المعارضة ،
وقد تزعم حركتها أعظم الخطباء والسياسيين الأحرار ، وهو لويس

كوشوت Kossuth . كان نبيل المولد ، عريق الحسب والنسب ، رغم فقره ، حاد الطباع قوي الشكيمة ، فدفع بالقوى الثورية المجرية ، حتى أدركت القمة . وقد نشر المرة الأولى مضابط مجلس الدييت لكي يطلع الشعب على أعمال البرلمان . وأسس صحيفة يومية ، لحفزهم المترددين ، واقناع المتشككين . وقد طالب باصلاحات سريعة ، أهمها تحرير الاتباع من نير الاقطاعيين ، وإعادة توزيع الاراضي . كانت الافكار في البلاد في حالة هياج . كالرجل المضطربة تحته النيران المتأججة ، فالمصالح المتعارضة والنزعات المتنافرة ، رفعت الرأي العام الى درجة الغليان . ثم حدثت ثورة ١٨٣٠ في فرنسا ، فدفعت الحركة الى الأمام ولم يتردد المجرىون في الضرب بسهمهم ضمن السهام التي اشتركت في المعركة .

شاءت المقادير أن يظهر في جو المجر المضطرب ، فريق من حملة القلم الشبان الذين ضاقوا ذرعاً بأساليب الحكومة الملتوية ، فرفعوا أصواتهم مطالبين بالحرية التامة للصحافة ، وبهيئة نيابية دستورية منتخبة من الشعب انتخاباً مباشراً وكان في مقدمة هؤلاء الشبان اسكندر بيتوفي Petofi ، الذي اصبح بعدئذ من أعظم كتاب الشعراء الغنائي في العالم قاطبة . ونظراً الى المركز الممتاز الذي يشغله هذا الشاعر في الأدب المجري الجديد ، فاختص له فيما يلي نصيباً وافراً من هذه المقالة .

ولد الكسندر بيتوفي من والدين فقيرين في سنة ١٨٢٣ . كان والده جزاراً ووالدته خادماً . لم يتلق من مبادئ العلم الا ايسرها

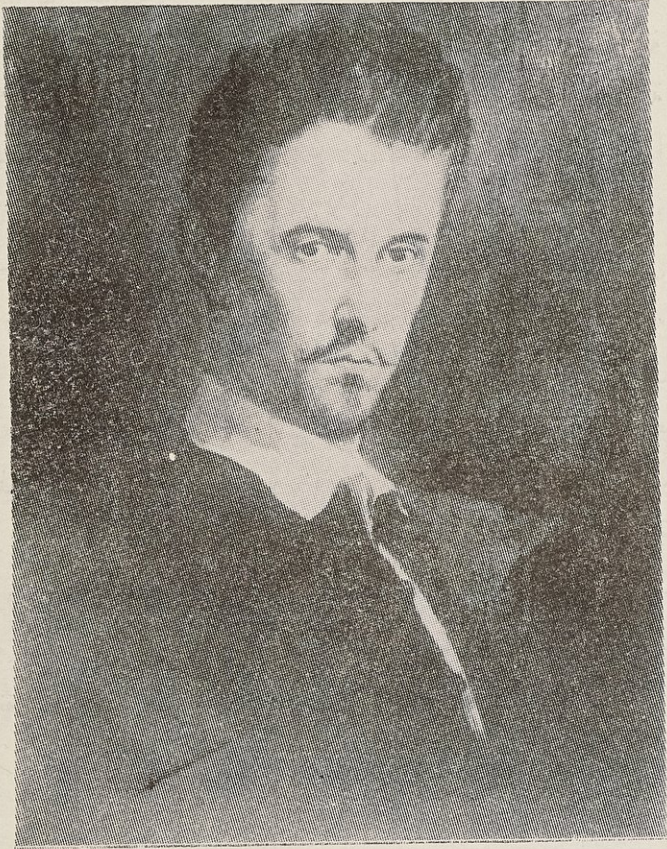
وكان انتظامه في المدارس الاولى مقطعا لهيامه بالتجول في السهول .
 وكانت روحه روحا جامحة تتجافى التقيد بالنظام فحجر حجرة الدراسة
 باحثاً عن المجد اولا في الخدمة العسكرية ثم على المسرح . ذلك انه
 عين وهو جندي للاقامة مع كتيبة في النمسا فاتيح له ان يتعلم اللغة
 الالمانية ، واكب بنفسه على درس اللغتين الفرنسية والانكليزية
 فاجادها بعض الاجادة . لم يصب على المسرح نجاحاً يذكر بل كثيراً
 ماتعرض هو وفرقة اثناء التجول لاشد الوان الخصاص والفاقة .
 وجاءت عليه ايام كان يعاني فيها برد هنغاريا القاسي وهو لا يملك ملابس
 تدفئ ظهره ، بل كثيراً ما كان يجوع ويدبت على الطوى . ولكن ،
 لا البرد ولا الجوع استطاعا ان يخمدا تلك الشعلة الداخلية المتقدة في
 صدره ، المتأججة كأنها قوة من قوى الطبيعة ، ثم انطلقت في شعره
 الذهبي توقا الى الحب والحرية . وبعث بشعاره الاولى الى المجلات ،
 فلم تفز باقبال من الشعب ولكن سطورها ونبراتها كانت متسمة
 بروح العصر فلم تلبث حتى سرت مقاطعها على الاسن فحفظت ورددت
 بحماسة . وكان شعار اشعاره « عشق وحرية » وهما كلمتان تمثلان
 بانقى ايجاز روح عصره :

عشق وحرية ،

هذين اريد

لعشقي ابذل حياتي

ولحريتي ابذل عشقي



اسكندر بيتوفي : شاعر الثورة

اطلقه نجاحه الادبي الاول من عقال همومه ، فدعي الى الاشتراك في مجلة ادبية ، فاصاب فيها دخلاً يسيراً ممكنه من الصداح ، فتوات القصائد من قلمه وافرة العدد سائرة دائماً في طريق الاتقان والاجادة . كان ابن السهول الهنغارية الفسيحة فاستوحى حرارة شمسها وافقها الامتناعي ، فكتب ماخفق به قلبه في حديثه في كلام سهل مناسب ككلام الفلاح ، صادق كتغريد الطيور ، متوقد نبيل كحجم البركان . لم يكن رائده في نظمه البحث عن قالب مصطنع من الكلام ، ولم تكن الالفاظ في اشعاره الا وسيلة متواضعة الى التعبير عما يحالجه من شعور سام وفكر ملح . ومع ذلك فقد كانت اشعاره على الرغم من بساطتها مفرغة في اتم القوالب جمالاً ، فقد كان الكلام ينساب من بين شفثيه كالجدول المترقق في الوادي ، بل اننا لنشعر بشذا ازاهير المروج في أغنياته . ان هدوء الليل في القرى الهنغارية يهمس اسراره في آذاننا ، وهجير النهار المتوهج في السهل يلفحنا ونحن نقرأ سطورره . هاهي ذي الكلمات التي تحولت اناشيد ترف في الهواء . لقد هب النسيم الرطب من القرية فتغلغل في الجو الخانق الذي يكتنف الشعر القديم فسبا القلوب جميعاً بنفحة واحدة . وقد كان طبعه جامعاً لا يقاوم ونعمته قوية تفرض على النفس ، فما لبثت المدن القديمة حتى حدت من حرثته فرد عليها يقول (للمقلدين) :

هل تحسبون الشعر عربة تتخيرون لها الفجاج المسلوكة ؟

الشعر عقبان تطير حرة في اجواء لم يخطتها أحد

الضعاف هم الذين يتساءلون في جبن : أين الطريق ؟
فاذا دلوا عليها هرولوا اليها كالكلاب الجائعة وراء العظام .
ايها الراغب ان تكتب ، خذ قلمك اذا آتت من نفسك القوة .
ثم تقدم الى حيث لم يتخط احد .
والا خذ محراثاً او قاب اسكاف
والق من يدك عودك الحقيير .

واجتذبه القلق السياسي في هنغاريا الى النشاط الاجتماعي
فعدا زعيم الشباب . فحاض قلمه في موضوعي تحرير أرقاء الارض
من النبلاء والتنديد بالحكم الاجنبي وخط على القرطاس الفاظاً ثورية .
وكتب قصيدة طويلة من النوع الملحمي عنوانها « الرسول » وصف
فيها نضال الانسان في سبيل الحرية ، ثم اطلق في قصائده القصيرة
سخريته اللاذعة على النبلاء المتراخين الانانيين الذين نصب من
صدورهم حب الوطن . فلما منع هذا النوع من الشعر لجأ الى المجاز
كقصيدته « الاسد الحبيس » :

ابدلوه من رحاب بلا حدود ، قفصاً صغيراً
وبين اعواد من الحديد في القفص الصغير سجن الاسد ،
ملك الصحارى

دعه ينهض مسلماً في غير عنف
فحرام ان تدله وهو من هو في جلالته
غصبتة حريره فلا تمنعه ان يحلم بها

اعجزته ان يدرك ثمار الشجرة فاتركه يتفياً في ظلها

لم يزايله كبره حتى الان

لقد سلبوه حريته ولونه ، ولكنهم لم يستطيعوا ان يسلبوه

نظرات البطل يديرها

لقد شردت افكاره هناك . . فتخيل نفسه في آجابه ، حيث

العواصف تدوي حوله ، والريح السموم تهب عليه

يالها من ايام طيبة ، وارض عزيزة

ولكن عالم تخيالاته انقطع لان حارس قفصه وصل ، وسرعان

ماهوى على رأسه بعصاه

يا لله . . وغد وعصا يحكمان

ان الجمهور الغبي حول قفصه يحملق

لقد اجترأ ان يضحك من الاسد

يا لله . . كيف تجترىء بغاث الارض ان تهمس

لو حطم الاسد قفصه ، وخلي بينه وبين حريته

لم يبق من ارواح هذه البغاث بقية لجهنم

ولكنه لم يخش ان يزجر في قصائد اخرى يبدو فيها الشعور

صافياً والقصد واضحاً ، لا يخطئها الظن كقوله في « نشيد الكلاب »

و « نشيد الذئاب » :

اذا غضبت العاصفة تحت السماء الغائمة

وتساقط ابناء الشتاء التوائم : الثلج والمطر ،

فلا شان لنا بها
لنا في ركن المطبخ مكان ارقدنا فيه صاحبنا الكريم
نحن لا يشغلنا القوت
فانه اذا اكل صاحبنا وشبع ،
بقي على مائدته كثير من الفتات
قد ينال السوط من اجسادنا حيننا
ولكن نفض الالم عن ظهورنا ونستريح
وسرعان مايجذبنا صاحبنا اليه
نلاطف في سرور ارجله الكريمة

* * *

اذا غضبت العاصفة تحت السماء الغائمة
وتساقط ابناء الشتاء التوائم : الثلج والمطر ،
فلا منجاة لنا منها
نحن في فيافي مقفرة ، لادغل فيها نلتجى اليه
الزمهري في الخارج ، والجوع في الداخل ، يضطهدنا ،
وهناك على الثلج الابيض ثالث ، هنالك السلاح
ينتظر ان يرى دماءنا الحمراء
نحن مقرورون جائعون حقاً ،
وجنوبنا هدق للسلاح حقاً
كل هذا الشتاء نصيينا
ولكن نحن احرار

وفي غمرة هذا النشاط كشاعر وزعيم، وجد متسعاً من الوقت
لأعمال أدبية أخرى ، فنقل آثاراً مختارة من الأداب الفرنسية
والألمانية . والامة الهنغارية مدينة له بترجمات نفيسة من شكسبير .
ثم وقع رغم شهرته وحب البلاد له في شرك الحب . وهوى فتاة
حقيقية لا من نسج خياله ، يوجه اليها الحان قيثارته . انها جميلة من
اصل نبيل وقد غدت قطب آماله ثم زوجه برغم معارضة والديها .
وهذه سلسلة من قصائد تبدأ بقصيدة « ما الامل » :

امرأة بلا شرف ...
تجاذب كل امرئ حبلى المودة
اذا انفقت عليها كنز الانفس : شبا بك
لم يبق لها في ودك ارب

ثم تمضي هذه السلسلة في عدد لا يحصى من القصائد الغنائية
الجميلة :

كيف اسميك ؟
اذا رفت من عينيك حمامة وديعة
ريشها من غصن الزيتون ، ولمسها انعم من وسادة المهد
كيف اسميك
اذا رن من صوتك نغم عذب

لو سمعته الاشجار الجافة لأورقت غصونا خضرا ، ظنا ان
الربيع اتى ، لان العندليب يعني

كيف اسميك ؟

وانت الام العزيزة لغبطي ؟

وانت التي تتضائل امام حقيقتك المتلائة آمالي الجريئة

عزيزتي ، جميلتي ، زوجتي :

كيف اسميك ؟

وتنتهي الى قصيدة «زوجتي» المحدودة من اتم واجمل القصائد
الغنائية في الآداب العالمية :

ما برحت ازهار الحديقة تتفتح في الوادي

وما زالت الصفصافة تحضر امام نافذتي

ولكن اليس هناك العالم الشتوي ، حيث يغشى الثلج قمة
الجل ؟

كذلك قلبي في شبابه يقوم الصيف باشعته الحارة ، وفي آماله

يتمثل الربيع المزدهر

ولكن شعري الاسود قد وخطه المشيب وغشى رأسي جمد
الشتاء

اجلسي هنا يا حبيبتي ، هنا في حجري

اقد اسندت الان رأسك الى صدري فهل ترتمين غدا على

ضريحتي ؟

هل تصنعين لو مت قبلك كفنا لرفاتي ؟
وهل يحملك عشق شاب ان تتركي من اجله اسمي ؟
اذا نبذت حجاب الارملة ، فاشنقيه الى شاهد تربتي ، ليكون
علماً اسود

وسارتفع اليه في جنح الليل ، وانقله الى لحدي
لأمسح به دموع حسرتي ، اذ نسيت في سهولة من يذكرك
ولأضمد به جراح قلب لا يزال في اي مكان وعلى الرغم من
كل شيء يحمل لك الحب .

وهذه قصيدة عنوانها الاصلي « في آخر ايلول » :

هاهي ذي الايام الاخيرة في ايلول تتوالى ،
واشهر الشتاء الطويلة في ذيلها .

لا تزال الازهار متفتحة في الأودية ولكن الثلج بدأ يجلد
قمم الجبال

وفي تلبده اندار بموت الطبيعة .

وبيتوفي يشارك جميع العباقره في انه كان متسماً بسمه النبوة ،
فاحس في كيانه الفاجعة المتهمة له في طيات الغيب . ورزق بغلام
بعد انقضاء سنة على زواجه ، فنعم بسعادة الحياة ، ولكن هذا
النعيم تبدد بعد قليل عندما نشبت الثورة في هنغاريا فكان له فيها
شان عظيم ، شبيه باحدى قصائده المتأججة التي تليت على الجمهور
المتحمس في شوارع بودابست ، فحملها وعدا بها الى المطبعة ونضد

حروفها وطبعها بغير اذن من المراقبة ، فكانت المنشور الهنغاري
الاول الذي لم يصدر اذن بطبعه .

كانت هذه القصيدة الخطوة الاولى نحو تكسير الاغلال التي
قيدت بها حرية الحجر ، فنشبت حرب الاستقلال . وانتظم بيتوني في
الجيش فجمع في القتال بين السيف والقلم . وكان النضال قشع
ما بقي من غشاوة رقيقة على بصيرته فكتب قصيدة «تعبير حلم» :

قلت يأماه : ان الأحلام في بعض الليالي ، تصورها يد
سرية قادرة .

وقلت : إن الأحلام كوة تطل منها ارواحنا على المستقبل
المغيب .

وقصصت عليك اني وجدت نفسي في المنام وقد نبتت لي
أجنحة ، فطرت إلى غير منتهى .

فأجبتني يأماه أني سأمتع بإيامي ، وأن شمس حياتي لن تغرب
وقلت يا بني هذا تعبير رؤياك

ذلك هو الشاب يشد ساعده ، فيحتضن العود

وها هو ذا يبتث العود أسرار نفسه

وتلك هي ألحان قلبه الهيب ، تذهب كالطير في مختلف

الآجواء

فتستنزل من السماء صيتاً يتلألأ

ومن شعاعه يتألق على جبين الشاعر تاج

ولكن حلاوة الالحان الساحرة ، تختزن السم في أعقابها
 فكل لحن يهبه الشاعر عوده ، زهرة من أزهار قلبه
 وما كل زهرة الا يوم من عمره لا يعود .
 ذلك هو الشاعر على سرير موته
 وهذه أمه بجواره تهيم بالتوجع شفتاها .
 تهتف بالموت الا يغصب ابنها من بين ذراعيها
 وتستنجز السماء وعدّها ان يعيش ولدها الحبيب
 وتقول في حسرة : أو تكذب الأءحلام ؟
 ما كذبتك الأءحلام يا أمّاه
 فاسدلي علي أكفاني
 وأودعي الرفات مصيرها المحتوم
 أما ابنك فسيمق اسمه حياً
 حياً الى الأبد .
 هذا يا أمي تفسير رؤياي .

وهي قصيدة استوقفت نظر الشباب والشيخوخ وحركت
 شعورهم . ففي هذه المرحلة المتأججة من حياته كانت قيثارته قد
 شدت أوتارها الى أبعد حد فانطلقت منها أشعار الحب وأنشيد
 الوطنية عميقة متوهجة ، حتى لنكاد لا نرى لها مثيلاً في آداب
 أمة ما .

كان في السادسة والعشرين من عمره فتياً ممتلئ الاعطاف
 ولكنه كان يتوق الى الموت ، لا موت التعفن والانحلال بين

الوسائد ، بل موتاً في الميدان دفاعاً عن الحرية فأنشد :

فكرة واحدة تعينني .

أن أموت على سريري بين الوسائد والحشايا
أن أذبل رويداً ، كالزهرة تتناهبها الحشرات
أن اتفانى بطيئاً كالشمعة اليتيمة في غرفة مهجورة ..

رباه لا تقدر لي ميتة كتلك
أريد أن أكون شجرة :
تخترقها الصاعقة ، او تستأصها العاصفة .
أريد ان أكون صخرة :
ينحدر بها من الجبل الى الوادي رعد صخاب .

حيما تنن الشعوب في أصفادها ، وتضيق بنيرها
فتخرج باعلامها الأحمر ، شعارها : الحرية للعالم أجمع !
ثم لا يلبث ان ينازلها الظلم بحديده وناره ،
هنالك فلائمت انا في حومة الوغى ،
هنالك فلتسل مهجتي فوارة حرى .

فاذا نبست شفتاي باخريات كلامي في غبطة ،

فلتذهب بين ضجة البوق ، وقعقة السيف ، وهدير المدفع .
واذا تهاويت على الأرض جثة فاقدة الحراك
فلتدسني سنا بك الخيل في عدوها الى النجاح المظفر .
ويوم تجمعون رفاي المحطم
وتحتشدون لدفن بقايا عظامي
وتسيرون بي وسط الموسيقى الوئيدة ، تحت الرايات السود
اودعوني مع اجداث الذين راحوا فداء لك : يا حرية العالم .

وقد تحقق ما أراد وقتل في اواخر ايلم تموز ١٨٤٩ في سهل
شجشوار حيث التقى جيش هنغاري صغير بقوة روسية ساحقة .
ومات استقلال هنغاريا بموت بتوفي ، فدفن « لاقبر ولا وطن »
مع سائر القتلى في مقبرة عمومية . ولكن الشعب الهنغاري لم يصدق
ان حريته خنقت وان شاعرها مات . فنسجت الاوهام أساطير
حول اسمه ، وغدا القرويون يتهامسون بأنه لم يمت ، وانه أسير في
سجن روسي وانه لا بد عائد مع الربيع القادم .

وفي سنة ١٨٦٧ تم التفاهم بين النمسا وهنغاريا فتحقت آمال
الشاعر واستردت هنغاريا حريتها وانقذت من الحكم الاجنبي .
ولم يشهد بيتوفي سعادة أمته ولكنه لم ير كذلك مأساة زوجه
وولده . اذ تحقق ما رآه بعين الخيال — في قصيدة « الى زوجتي »
— عندما تزوجت زوجته رجلا آخر بعيد مصرعه ومات ابنه
في حادثته .

كان يبتغي شهاباً في سماء الأدب صعد من الحضيض الى الوجود
ثم اختفى في الظلام ، ولكن آثاره الفنية باقية معنا بين امجاد
العبقريّة الانسانية .



٣ - أدب ولد في الكفاح

تدثر الشعب المجري برداء الحزن ، على اثر الكارثة التي أمت به من جراء انهزامه في حرب الاستقلال . ولكنه ظل يعمل نفسه بالأمل في البعث .

ومرت الحقبة بين سنة ١٨٥٠ ومصالحة سنة ١٨٦٧ في اضطراب وتنازع ، بين الحكم المطلق والمعارضة الشعبية المتمردة المستميتة . وعاد الشعراء يواسون الأمة البائسة ، المغلوبة على أمرها . فقد كتب ميخائيل طومبيا M. Tompe مرثيته الدائعة الصيت الموجهة الى اللقلق ، وهو طير رحال ، يسافر الى افريقيا في فصل الشتاء ويعود الى المجر في فصل الربيع . وقد تضمنت الأبيات الشعرية بشكل واضح اشارة خفية الى حرية المجر المسلوبة ، واحتلال الجيوش النمساوية لأراضيها ، ففرغت الحكومة وبادرت الى القاء القبض على الشاعر وسجنه ، عقابا له على جرأته واليك مقالته في حديثه الى اللقلق :

نسيب الى اللقلق

قصيدة لميشيل طومبيا

لقد منحت دارين ، اما نحن ، فكانت لنا دار
واحدة لكنها فقدت هي أيضاً .

النسيم عليل ، وضوء الشفق انتشر في الافق
لقد عدت أيها اللقلق ، أيها الطير الحبيب
وبدأت تصلح ثقب عشب القديم ،
لكي تحتضن زغب أفرأخك الصغار .

عد ادراجك عد ! ستخيب ظنك
الشمس الكاذبة ، ودموع الغدير المنافقة .
عد أدراجك عد ! فلا ربيع هنا بعد اليوم !
وستظل الحياة دائماً جافة كالحجر الصلد ، باردة كالجليد اليابس .

اياك أن تذهب الى الروضة ، فهاهي الاقبر موحش
أياك أن تذهب الى البركة ، فقد طفحت جوانبها دما !
واذا نشدت فوق الأبراج ركنا لتستريح
فحذار من أن تطأ بقدميك جمرة حامية .

خير لك ، كما تري ، أن تغادر سقف منزلي !
ولكن الى أين المصير ، أين تستطيع بناء عشب

دون أن تسمع تحته رنين البكاء ونشيج النحيب
ودون أن تتوقع نزول الصواعق من السماء .

عد ادراجك عد ! ان الجزيرة في الجنوب تنتظرك
فأنت أسعد حظاً منا أيها الطير الحبيب .
لقد شاءت الأقدار الرحيمة أن تمنحك وطنين
أما نحن ، فلم يكن لنا الا وطن واحد ، ثم فقدناه .

طر ! طر ! واذا وجدت في مكان ما من الجنوب
مذنبين مختبئين عن الأعين او مشردين في الأرجاء
قل لهم ان كل شي قد انتهى ، واننا تأهون في دياجر الظلمات
قل لهم ان الأمة أخذت تتبعثر ، كالحزمة اذا فسكت أوصالها .

قل لهم ان عدداً كبيراً منها قد احتوته القبور
واننا نحن الباقين في قيد الحياة ، نمشي الهوينى في صمت رهيب .
واذا نهض بعضنا من كبوته باكياً
ذهب الى ما وراء البحار للبحث عن وطن .

العرائس يتهلن الى الله أن يجذب بطونهن
والآباء يشهدون موت أبناءهم دون أن يذرفوا الدمع من مآقيهم
وقلوب الشيوخ تمتلىء فرحاً وسروراً
اذا مافكروا انهم لن يعيشوا طويلاً .

ثم . . . قصَّ عليهم — وباللهار ! —
أنه ما كفانا حظاً قطع الشجرة
بل لقد ظلت في الشجرة المقطوعة دودة قارضة
وأخذ المواطن يخون الوطني .

الابن يبيع أباه ! والائب يبيع ابنه
ولكن ! من الخير أن يصمت فمك
حتى اذا كان هنالك من يندب سوء طالع بلادنا عن بعد
لا ينتهي به الأمر الى الاشتزاز منها .

وقد وصف الشاعر أراني Arany القرى المجرية الهادئة ،
وكتب ملحمة شعرية قوية جداً بطلها شخصية خرافية ، ووضع
بعض الاغاني التي تضارع روائع الابد الاسكتلندي في اثارها
المرهبة . وقد حاولت الحكومة أن ترشوه فقدمت له مائة دينار
ذهبا ، اذا وافق على امتداح العهد الجديد . لكن الشاعر ، رغم فقره
المدقع ، رفض العرض في أغنية تمزق القلوب أسى عنوانها : « شعراء
ويلز » . وقد جاء فيها أن ادوارد ملك انجلترا ، عندما غزا بلاد ويلز ،
دعا شعراءها وطلب اليهم تمجيده . لكن أحداً منهم لم يمتدحه ، بل
أجمعوا على هجوه . وقد جيء بهم الواحد تلو الآخر الى المشنقة ،
فضربت أعناقهم ، دون أن يخفضوا هاماتهم أمام العاهل الظالم .
وكانت هذه الأغنية مجازاً الى أن الوعود الكاذبة والرشاوى لن تحوّل

المجريين عن عزمهم على استرداد حقوقهم المسلوقة .
وكان الانتاج القصصي وافراً جداً . لذلك ساقصر اهتامي
على أحداً عمة القصة المجرية ، وهو معروف في جميع انحاء أوروبا ،
بفضل ما ترجم من مؤلفاته : ذلك هو موريس يوكاي .
بدأ حياته الأدبية معاصراً لاسكندر بيتوفي ، لكنه حظي
بعمر طويل امتد الى مستهل القرن العشرين . كان من جنود حرب
الاستقلال ، وشهد المصالحة بين أسرة هابسبورج والائمة المجرية ،
وحضر عصر النهضة الاقتصادية والثقافية . وقد ثابر على الانتاج مهمة
لا تعرف الكلل ، فكتب نحو ثمانين قصة طويلة ، نهج فيها نهج الأدباء
الابتداعيين (الرومانتيكيين) . وقد تناول في قصصه الحياة في المجر ،
ووصفها وصفا خيالياً رائعاً . وحوادث قصصه متنوعة مسلسلة جذابة ، حتى
ان القارئ لا يستطيع اغلاق صفحات الكتاب قبل أن يصل الى النتيجة
النهائية التي اخذ يشوق اليها منذ بدء القصة . وحلل شخصيات الطبقات
الاجتماعية المجرية ، كباراً وصغاراً ، ابتداء من الفلاح المتواضع الى
العظمى المتعجرف . فكانت قصصه كالمرآة ينعكس عليها القرن
التاسع عشر بأسره . وفي قصصه التاريخية ، ابتدع صورة خياله
لحياة عصره ، وبالرغم من ان هذه الصورة من مبتكرات خياليه
وبالرغم من انها لا تمت الى الحقيقة التاريخية بآية صلة ، فقد أقبل القراء
على قصصه اقبالاً كبيراً ، وما زالوا حتى الآن يعتزون بمؤلفاته . وقد
تنبأ في روايته عنوانها « القرن العشرين » باكتشاف الطائرة والغواصة
والمذيع ، وكان وصفه لها دقيقاً الى حد الابداع . ومما يؤسف له أن

قصص يوكاي لم تنقل الى العربية ، بينما ترجمت الى الفرنسية والانجليزية ، فأصبحت في متناول اليد . بذلك ، أوصي اخواني العرب بمطالعتها ، مختصاً بالذكر تلك التي تتناول موضوعات الحكم التركي في الحجر ، فهي تمتاز بالدقة ، وبالأوصاف الزاهية الألوان . وفي قصته : « الرجل الذي عيناه في جبهته » تحدث عن الحج الى مكة المكرمة بعبارات الاجلال نحو الشعائر الدينية الاسلامية ، و اضاف اليها وصفاً خيالياً عن قصة اعرابي جوال لاقى شتى المخاطر والحوادث .

وجدير بي الآن أن أوجه نظر القراء الكرام الى أعظم قصة مؤثرة وضعها « امره ماداج » وعنوانها « مأساة الرجل » ، والمؤلف رجل عظامي متيسر الحال ، اشترك في الحركة الوطنية ضد الاحتلال النمساوي وسجن لمدة سنة . وفي خلال ذلك هجرته زوجته ، فزهدها الحياة الدنيا وعكف على قراءة جميع الكتب الفلسفية والعلمية التي ظهرت في عصره . وقد جاءت المآسي العائلية التي انتابته ، فضاعفت كآبته ، وبلغ حدّاً من التشاؤم جعله يرى مصائر الانسانية بمنظار أسود قائم . وحفزه هذا الشعور ، على كتابة مأساة مسرحية فلسفية موزونة ، نلخصها فيما يلي :

خلق الله الكون ، فجاء ابليس ، أحد الملائكة المتمردين ، مطالباً لنفسه بنصيب في تاريخ الانسانية . عندئذ منحه الله شجرتين في الجنة : شجرة الخلود ، وشجرة المعرفة . جاء الزوجان الأولان من الجنس البشري ، وهما آدم وحواء وتذوقا ثمار الشجرتين ، ففقدوا الجنة ، من

جاء هذا التصرف. واصبح آدم مدركا لقوته، فرسم لنفسه الطريق
وسلكه . والآن وقد حاز المعرفة ، يريد كشف ماخفي من مصير
ذريته ، أي الجنس البشري . نوّمه ابليس وعرض على أنظاره — في
حلم سحري — تقلبات المصير الانساني ، مبتدئاً بالاھرام المصرية ،
ومنتھيا الى انهيار العالم واختفاء الجنس البشري . ويتكون العرض
من خمسة عشر مشهداً ، مرتبطة بعضها ببعض ، وفي كل مشهد ،
يظهر آدم مرتدياً زياً مختلفاً عن ذلك الذي ظهر به في المشهد السابق ،
وهكذا دواليك . ففي مصر مثلاً ، آدم هو فرعون ، وابليس وزيره ،
وقد فرضا حكم الاستعباد ، وسخرا الشعب في تشييد بناء ضخم ،
تخليداً لذكرى الملك . وفي اليونان يتمتع الشعب بالحرية ، لكنه لا يزال
عرضةً لأساليب التحريض والفتنة التي يثيرها فريق من الاستعماريين .
ويظهر آدم في روما مع حواء ، حيث يتمتعان بالملذات الفاسقة
الخليعة ، واخيراً قبلت المدينة التعاليم المسيحية . هنا يعود الأمل الى
نفس آدم ، ظاناً أنه قد عثر على طريق السعادة . وفي المشهد التالي،
يلبس آدم درع الفوارس الصليبيين ، لكي يحارب في سبيل الدين
المسيحي . وبعد عودته ، يتضح له من التجارب أن المسيحية قد فسدت
على أيدي القساوسة ، فيتحول عن هذه النظم الخاطئة ، متذمراً مشحزراً
ويعكف على دراسة العلوم . وبعدئذ ، ينتحل آدم شخصية كيبلا ،
الفلكي الكبير ، لكنه لا يلبث أن يفقد كل أمل في قوة العلم . هنا
يظهر مشهد جديد — مشهد الثورة الفرنسية — فيدخل آدم في ثوب
الزعيم دانتون ، ويدعو الأمة الى التمسك بالمبادئ الشعبية

(الديمقراطية) الحرية . ولكنه يذهب ضحية لاختلاصه ، فيجرفه تيار الثورة . وها هو ذا معرض لندن الصاحب ، المكتظ حيث نشطت الأعمال ، وتبوءت حرية التجارة المكان الاول ، فاسفرت عن نتائج باهرة . لكن آدم الواجم عاد فتحقق مع الأسف الشديد أن حرية التجارة تدوس بأقدامها الشعب الفقير المستغل ، وتهبط به الى الحضيض ، وهو يعلى النفس بالأماني ، راجيا أن يقوم مجتمع جديد، حيث يحيا الجميع ضعافا وأقوياء، حياةً كريمةً في رخاء ورغد. والمشهد التالي هو مجتمع «فالانستر» الذي تخيله فورييه المصلح الاجتماعي الفرنسي الشهير . ففي هذا المجتمع ، تتصرف محكمة عليا في جميع السلع وتوزعها على أفرادها . وتقدر الأمور بحسب المعقول ، وتجري الحياة وفقاً للأساليب العملية ويستغنى عن تشغيل الحيوان، ويستعاض عنه بالآلات . هكذا أصبح الكون يدار في حدود عملية ضيقة، وتحول الانسان الى آلة صماء . نظر آدم الى هذه الصورة ، فأثارت الاشتمزاز في نفسه فحاول أن يطير الى السماء ، أن يعثر هنالك على نجم سيار جديد، أسعد حظاً . لكن محاولته هذه ذهبت عبثاً . وأخيراً شعر باقتراب نهاية الجنس البشري ، اذ أخذت الأرض تبرد ، وانتشر فيها القحط، فنزل الانسان الى درك الاسكيمو ، الذي لا يفكر الا في اشباع نهمة، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأعجم . عندئذ استيقظ آدم من حلمه فرعا من جلبة العالم المنهار ، في طريقه الى الخراب والدمار . وقد فكر آدم في الانتحار ليذوق خطر الحوادث التي رآها في حلمه ، ولينقذ نفسه من مشاهدة تطورها على مر الأجيال ، فشرع في القفز من

فوق صخرة عالية ، لكن حواء أسرت اليه في أذنه انها حامل ، فكان هذ النبأ ايذاناً لبءء حياة بني الانسان على الارض ، وسيرها في طريقها الوعر نحو مصيرها المحترم .

ان هذا المؤلف العظيم ليشير الرهبة في النفوس ، نظراً الي طابعه التشاؤمي المفزع . بيد أنه يعتبر من أروع المسرحيات الفلسفية المؤثرة . وهو يختلف كل الاختلاف عن « فاوست » التي ألفها غوته وكثيرا ما قوبل بها على انه يمتاز عليها في عمق الفكرة ، والمكانة والفلسفية .

هذأت الحياة السياسية في المجر ، بعد تصالحها مع النمسا في سنة ١٨٦٧ ، فأنجبت سنوات السلم ، مئات من القصصيين والشعراء يطول بنا المقام لو اردنا مجرد بيان أسمائهم . بيد أن اهتمام المؤلفين اتجه رويداً نحو حياة عامة الشعب والفلاحين . وقد تطلبت المشاكل الاجتماعية حلولاً سريعة ، فأخذ الكتاب يعبرون عنها بأسلوبهم وطريقتهم . وهناك مؤلفون مسرحيون مجريون نالوا شهرة عالمية : أمثال فرنسيس مولنار وأوجين هلنار ، الذي جمع بين فن الشعر ، وفن رواية القصص . وكتب جوزيف كيش بعض الاغاني المؤثرة ، وعرض اسكندر برودي حالة الطبقة الوسطى في المجر ، وتطورها في سبيل التقدم والازدهار .

ومن المؤلفين العديدين الذين اشتهروا في نهاية القرن التاسع عشر وامتدت حياتهم الى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، نذكر اندريه آدي . فهو النبراس الذي اهتدى به هراة الأدب ، بل هو المنهل

الذي ارتوى منه المتعطشون الى روائع التأليف . عاد من باريس متشبعاً بروع المذهب الرمزي ، فأثارت قصائده موجة من المعارضة الشديدة . كان نغم شعره جديداً مبتكراً ، وكانت طريقته مختلفة عن الطريقة المعتادة . وكان يكرر الكلمات لكي ينسق النغم مع المعنى ، فلو عرف ناقدوه اللغة العربية لاكتشفوا بين أوزان شعره وأوزان الشعر العربي مشابهة كبيرة ، سواء من حيث الاستعارات والتشبيهات ، أو من حيث قوة الأسلوب ، وتنوع المفردات . ويمتاز شعر الغزل الذي كتبه هذا المؤلف بالمشهوانية الملتبها ، أما شعره السياسي فهو صرخة نبي يخشى وقوع كارثة لا يمكن درؤها . ومن العبث أن نتحدث عن الشاعر ، فمؤلفاته هي التي تشيد بذكره وسأورد هنا بعض نماذج منها . لكن الترجمة ، مهما كانت دقيقة ، ليست الا مجرد ظل لقوة الأصل وورصاته .

ابن الرجل الطارع

لأندرية آدي

أبي يعمل من الصباح الى الليل
يكد ويكدح ويتصبب جبينه عرقاً في سبيل عمله
لا يمكن أن يوجد رجل أفضل منه
في أي مكان . . في أي مكان .

رداء أبي بال وهو حافي القدمين
لكنه يبتاع لي أحسن الملابس



الشاعر اندريه آدي : أوزانه قريبة من الأوزان العربية

ويحدثني عن المستقبل الباهر
في عطفٍ وحنان .

أبي عبد رقيق للأغنياء ،
أنهم يضايقون هذا المسكين العزيز ويؤلمونه
ولكن إذا جن الليل آب الى المنزل
حاملاً معه الأمل والخير والضوء .

أبي رجل قوي البنية فارع القامة
وهو يمنحنا العزة والصحة .
ولكن إذا كان الأمر يتعلق بشخصه
فهو لن يخفي رأسه للمال .

يا له من رجل فقير ، كئيب الوجه !
لولا تفكيره في مصيري
لوضع حداً لهذه المهزلة
الدنيوية الكبيرة .

للم يشأ أبي أن يفعل كل هذا
لما وجد أي رجل غني .
ولا أصبح جميع رفاقي
فقراء مثلي .

لو شاء أبي أن يقول كلمة واحدة
يا لله ! لارتعد كثيرون فزعا
ولما استطاعوا أن يعيشوا فرحين
سعداء كما هم الآن .

أبي يعمل ويكافح
وليس هنالك من يضارعه قدرة ، عن قرب أو عن بعد .
إنه أقوى سلطة من الملك
أبي العزيز

في مركبة الخضر

أراد الله — كما فعل مع الخضر قبلا — أن ينتخب
من يحبهم ومن يؤذيهم كثيرا
فمنحهم قلوبا نارية سريعة الخفقات
مثل المركبات الملتهبة .

أخذت قبيلة الخضر هذه تطير في السماء
وتقف حيث يوجد الجليد الدائم
على قمة جبل هيمالايا المغطاة بالثلوج
فتسحقطن مركباتها ، وتحدث قعقة مزعجة .

أخذت رياح القدر تطاردها الى الأمام

بين الأرض والسماء في حزن وتشريد
وأخذت مر كباتها تعدو
نحو أشكال دنيئة سافلة لاروعة فيها ولا جمال .

احترقت قلوبها وتجمدت عقولها كالجليد
فهزأ العالم بها واتخذها أضحوكة
لكن الشمس رثت لحالها فنشرت
ترابا من المس على طريقها الجليدي

فريب الموت

أنا قريب الموت
أحب الزوال عند البداية
أحب القبلات التي تطبع
على جبهات الراحلين الى الأبد

أحب الورود التي تنخرها الآفات
أحب النساء الذابلات اللئي يتمايلن شهوة
أحب أيام الخريف
المتألقة أسفا وأسى

أحب نداء التحذير
الذي يفاجئنا في ساعات الشجن
أحب ظل الموت الهادئ
ظل الموت الطاهر الجبار

أحب وداع المسافرين الحزين
الذين يذرفون الدمع مدرارا
أحب المروج المغطاة بالجليد الأبيض
عندما يصفو السححر شتاء .

أحب الاستسلام العميق ، المتعب الكليل
أحب البكاء الذي لا تسكب فيه الدموع ؟
أحب الهدوء الساكن !
أحب استرخاء الحكيم والشاعر
والعاجز العليل .

أحب ذاك الذي تملأه اليأس وانتابه القنوط
فسقط في الميدان . أحب الذين كتب عليهم التكاسل والتقاعس
أحب ضعيف الإيمان ، والشرس العبوس
أحب الكون

أنا قريب الموت !
أحب الزوال عند البداية

أحب القُبُلات التي تطبع
على جبهات الراحلين الى الابد

رسالة الحجير

أي وطني العزيز الصغير ، ماأشدَّ حنيني اليك
فكالحجير المرشوق في الفضاء الذي يعودُ الى الارض ،
سيعود أبنائك إلى ظهرا نيك

إنه يجول ببصره فيرى الابراج عن بعد
ويتعثر في الطريق ثم يخر أرضاً ليحشو في وجهه التراب
الذي استمد منه الحياة .

لكم تآقت نفسه الى الانفلات ، لكنه عجز
إن حميته الوطنية الجرية تنمو وتترعرع ثم تتأرجح
وأخيراً تعود فتفيضُ وتحققُ كالقلب النابض

أي وطني العزيز ! إنني لك ! لك حتى في أشد أوقات الغضب
بل أنا مجري شقيُّ بأس
حتى في ساعات الغدر والكوارث والاهواء

أي وطني الصغير الكليل

إنتي اصدُمُ وجهي بوجهك
كالحجر المرشوق في الفضاء الذي يعود الى الارض مُكرّها
كثيلاً

وا أسفاه ! عبثاً عاهدتُ نفسي آلاف المرات
على العدول لكتني نقضتُ العهد
نعم ! ونقضتُه الى النهاية

انتهت الحرب العالمية فحلت الكوارث بالمجر . إذ مُزّقت
أوصالها ، وحل بها اليأس ، فلم تستطع النهوض من كبوتها الا بعد
سنوات .

كان الأديب خير معين للبلاد ، فاستلهم « جيجموند مورتز »
الوحي من أرض المجر وطبيعتها الجذابة وهوائها العليل ، خلق
الشخصيات الريفية ، وبحث مشاكل الريف . وقصته « كن مخلصاً
الى الموت » ، جذيرة بان تترجم الى اللغة العربية .

ولم يكن الشاعر « سيب Szep » ثورياً ، بل كان شاعراً
هادئاً في أفكاره وشعوره . وكانت الطبيعة ومناظرها الجميلة تحرك
نفسه ، فتنهمر الدموع من مآقيه . وفيما يلي نموذج واحد من شعره :

من ذا يقدر صوت الابكم الخافي
لو كان ينطق من يدري أغانيه
من يعلم الحسن في عين مغيبة
عين الضمير ونوراً في دياحيه

كم بسمه حلوة كانت منافذها
زجاج نافذة قد بات منكسراً
وأي سحب مضت في الليل سباحة
وأي حلم جميل صاحب الفقر

ثم حدثت الثورة الاجتماعية، وقعت بها الحكومة بأساليبها الرجعية
فحاولت كفة الميزان الراجحة الى جانب الطبقات العاملة، وطبقة
الفقراء المعدمين، المحرومين من ملكية الأرض. وقد أخذت طبقة
كبار الملاك تتوجس شراً من تدمير المحرومين والمعدمين فاعتقدت أن
الثورة الاجتماعية أصبحت قاب قوسين أو أدنى. وكان المبرر عن
تلك الثورة شاعر شعبي هو « جوزيف آتيل » . ولم يعيش هذا الشاعر
طويلاً، وكانت حياته مضطربة لا تجد الى الهدوء سبيلاً، لقد رفع
صوته عالياً في انغام شعرية شجيرة، مطالباً بحقوق الطبقة العاملة
فكسب المعركة في النهاية.

إن الامة المجرية الآن قد نبذت الفوارق الاجتماعية. فالجميع
سواء، يكونون أسرة واحدة، لا تميز بين فلاحين وعمال وموظفين
ومديرين ورجال فن وتلاميذ. أما تاريخ هذه النهضة الجديدة التي
نهضتها المجر، فستكتبه الاجيال القادمة. وأختم راجياً أن يجد
المؤلفون العرب في تاريخ الأدب المجري ما يشجعهم على الكفاح
بشجاعة واقـدام في سبيل خلق أدب شعبي حر مشبع بروح
الاخلاص. تلك هي أمنيتي فاذا تحققت لرضيت عن عملي هذا
ولا اعتقدت أنه لم يذهب سدى.



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

(~~11~~)

Pj7538

.G45xB3

Princeton University Library



32101 062241730